Association de la Recherche
Historique et Sociale
Ksar El Kebir



جمعية البحث
التاريخي والاجتماعي
بالقصر الكبير

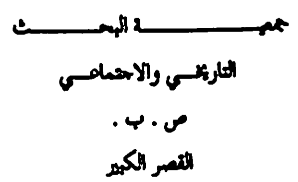
المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى

ذ. محمد بنخليفة

2012

ASSOCIATION DE LA RECHERCHE
HISTORIQUE ET SOCIALE
B. P. 54
KSAR EL MEBIR





المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى

ذ. محمد بنخليفة

2012

الكتـــاب : المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى

المـؤلـف : ذ. محمد بنخليفة

النـاشـر : جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير.

الإيـداع القانوني : 2012MO0696

ردمـك : 978-9954-30-791-5

الطبـع : مطبعة الأمنية – الرباط
الهاتف : 39 48 72 037
الفاكس : 27 04 20 037
البريد الإلكتروني : impoumnia@yahoo.fr

الرقانة الأولية : عواطف غيلان

إعداد وتنسيق : ج. محمد أخريف- محمد العربي العسري

المبادرة الوطنية للتنمية البشرية
Initiative Nationale pour le Développement Humain

هديـة

مـن جمعيـة البحـث التاريخـي و الإجتماعـي بالقصـر الكبيـر

إلـى:

المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى

تصدير

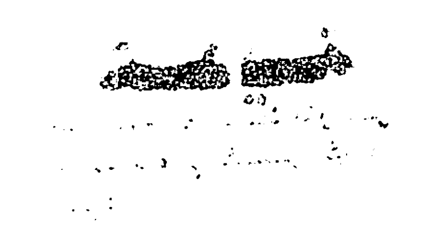
منذ نحو أربعة عقود، وردت في كتاب "الطريق لمعرفة القصر الكبير" إشارة تفيد بأن الأستاذ محمد بنخليفة، منهمك في تأليف كتاب حول القبائل العربية في المغرب.

ومنذ ذلك اليوم أصبح إنجاز هذا العمل أمنية لا تبارح فكر وخيال أستاذنا محمد بنخليفة، يعمل بجد وتفان على إخراجها حيز الوجود، وفاء لعهد قطعه على نفسه، كي لا تفقد إشارة صاحب "الطريق لمعرفة القصر الكبير" الأستاذ محمد بوخلفة رحمه الله مصداقيتها.

وها هي جمعية البحث التاريخي والاجتماعي اليوم ومحمد بنخليفة أحد أعضائها المؤسسين وأحد الأسماء الفاعلة في مجال البحث التاريخي بمدينة القصر الكبير، تحقق أمنية الرجل فتخرج إلى الوجود كتابه الموسوم ب: " المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى".

وقد سبق لجمعيتنا أن أصدت له ثلاثة كتب هي: (أعلام القصر الكبير) (الشتيت والنثير) (المغرب ومقدمة ابن خلدون).

ولعل أهمية كتاب "المستصفى" تكمن في تناوله لموضوع جدير بإلقاء المزيد من الضوء، على اعتبار أن القبائل العربية بالمغرب تعد من المكونات البشرية الهامة في المشهد السياسي والثقافي والمجتمعي في تاريخ المغرب وهذا ما سعى المؤلف إلى إبرازه.



ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقدم شكرنا للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية بإقليم العرائش، التي ما فتئت تدعم كل الأعمال الهادفة إلى تنمية هذا الإقليم في العديد من المجالات بما في ذلك المجال الثقافي. وفي هذا السياق التشاركي تم إصدار هذا الكتاب.

الجمعية

عِبر كلها اللّيالي ولكن   أين مَن يفتح الكتاب ويقرأ

الشاعر إسماعيل صبري

مقدمة

وبعد، فإني أقدم هذا الكتيب إلى القارئ الكريم وكلي أمل أن أكون قد وفقت في تحقيق غاية سعيت إليها منذ بداية هذا البحث، ألا وهي تعريف من ليس له إطلاع على الأحداث والوقائع التي نجمت عن دخول القبائل العربية من الجشمية والهلالية والمعقلية والسليمية إلى مغربنا الأقصى العزيز منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين بصورة مختصرة ومركزة، من غير ما إهمال لذكر أهم الأحداث ومجرياتها، إلا أنها ليست من المباحث ذات الطابع الأكاديمي.

أما عن مصادر هذا المبحث ومراجعه، فإني لا أفشي سرا إذا قلت إنها تلك المصادر والمراجع المغربية المعهودة والمعتادة من كتاب العبر لابن خلدون، إلى المعجب للمراكشي، والقرطاس لابن أبي زرع، والترجمان المعرب للزياني، ونشر المثاني للقادري، والإستقصاء للناصري، والضعيف، والجيش العرمرم لأكنسوس، والأقنوم منظومة عبد الرحمن الفاسي، وآسفي وما إليه للكانوني، وإيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة للصديقي، وقبيلة زعير لابن سودة، وكتاب الرحامنة للصديقي، وأثر القبائل العربية لمصطفى بوضيف، والجيش المغربي لعبد الحق المريني. ولولا هذه المصادر والمراجع ما كان لهذا المبحث أن ينجز.

وقد حاولت جهد الإمكان البعد عن التفاصيل المسهبة وإنجاز ذلك في عبارات موجزة وفقرات مختصرة وأخبار مقتضبة دفعا للملل مع تعليق وتفسير يجنح صاحبهما إلى الاعتدال وينأى به عن الحذلقة والتعمق والتمحل.

وسيجد القارئ من هذا الجيل في هذا الكتيب أهم الأحداث التي حوتها الكتب والمؤلفات عن هذا الموضوع بصورة مركزة من غير تفريط في مضمون صادق أو إهمال لحدث قيم. وسيقول المؤرخ المغربي المتمكن: هذه بضاعتنا ردت إلينا. وأقول لقد وضعناه لمن هو عن هذا الوطن ناءٍ أو عن خبره لاه وبتاريخه غير ملم وسيغني المقتصد عن تقليب مئات الصفحات في الكتب والمؤلفات، وبالله التوفيق وعليه الاعتماد مع الامتنان لأولئك الذين استفدت من مباحثهم في إنجاز هذا المبحث وعلى الله قصد السبيل.

المؤلف:

محمد بن عبد الرحمن بنخليفة الخليفي

تمهيد

عزيزي القارئ إن من واجب كل ذي تأليف أن يقوم بتقديم نبذة أو نظرة عن المقصود من تأليفه والغاية التي يسعى إليها، ومن هنا فإنني أقول إن غايتي تعريف القارئ بالحياة العامة التي عرفتها هذه القبائل خلال تواجدها بالمغرب. وهذا ما دفعني إلى كتابة هذه السطور جاعلا منها نبراسا للقارئ الكريم يلقي الضوء على الظروف التي عاشتها وتعيشها هذه القبائل العربية في مغربنا العزيز فأقول:

كان دخول هذه القبائل العربية إلى مغربنا الأقصى قد بدأ على حسب بعض الروايات منذ عهد المرابطين، حيث استعان يوسف بن تاشفين ببعض القبائل الجشمية والهلالية في جوازه الثالث للأندلس على حسب رواية المؤرخ الأندلسي ابن الكردوس صاحب كتاب تاريخ الأندلس. إلا أن دخولهم قصد الإقامة والاستقرار لم يتم إلا في عهد الموحدين، بداية من زمن عبد المؤمن بن علي إلى عهد يعقوب المنصور الذي أنقل جمهورهم من إفرقية والمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، وعمل على منحهم أراضي تامسنا وأزغار وسهول تادلا وورديغة. وإذا كانت الجشمية والهلالية والسليمية قد استقرت بهذه الأراضي فإن قبائل بني معقل كانت في نفس التاريخ تنتشر في شرق البلاد وجنوبها وعلى طول ملوية وأراضي تافيلالت مندفعة نحو واد درعة إلى واد نول بسوس. ومن هنا نعلم أن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس (هـ) كانتا تمثلان بداية استقرار هؤلاء العرب من مضرية حجازية وقحطانية يمانية بهذه البلاد.

إن أهم الأراضي التي استقرت بها هذه القبائل كانت هي أراضي تامسنا التي كانت شبه خالية من السكان بعد أن دمرت دولة برغواطة من قبل المرابطين ومثلها أزغار وبلاد الهبط من المناطق التي عمرتها قبائل رياح الهلالية في حين انتشرت قبائل بني جابر في تادلا وورديغة، وباستقرار هذه القبائل في هذه المناطق تحقق تحولها من النجعة إلى الاستقرار، وامتهنت الزراعة وتربية المواشي فازدهرت بذلك تلك الأراضي بما أنتجته من محاصل، فاستفادت بذلك الدولة مما جنته خزينتها من ضرائب وزكوات وأعشار، وحالت بين هذه القبائل وبين العودة إلى حياة انتجاع القفر والانتزاء والقيام بالثورات والإفساد.

لم يمر زمن طويل على استقرار هذه القبائل حتى أصبح الموحدون ومن بعدهم المرينيون يقومون بالاستعانة بأبناء هذه القبائل في تحقيق أهدافهم العسكرية والسياسية، وتسخيرهم في بسط نفوذهم على المناطق المستعصية وإخضاع القبائل المتمردة سواء في داخلية المغرب أو الجزائر أو تونس. بل عملت هذه الدولة على الاستفادة منهم في القيام بحملات الغزو ذات الطابع الجهادي في الأندلس، فخاضت بهم المعارك وحمت بهم الثغور وملأت بهم الحصون في فترات مختلفة، سواء كان ذلك على عهد الموحدين أم على زمن المرنيين.

أجل لقد عرفت هذه القبائل على عهد الموحدين والمرنيين ظروفا ملائمة لها جعلتها مقربة من قبل الملوك والأمراء، نظرا للدور الذي أنيط بها في الدولة كالقيام بالمهام العسكرية والسياسية مما أهل شيوخها لبلوغ أعلى المراتب في الدولة فحصل لها بذلك شيء غير قليل من الثروة

والنفوذ والجاه حتى أصبح لبعض شيوخها دالة على الدولة وملوكها. ولعبت دورا خطيرا في الأحداث السياسية المغربية عبر تاريخها السياسي والعسكري.

أما من الناحية الاجتماعية فيمكن القول إن وجود هذه القبائل قد ساعد على نشر اللغة العربية في مناطق لم تعرفها من قبل، وساعد ذلك على استعراب الكثير من عناصر البربر التي تواجدت في تلك المناطق التي حلت فيها هذه القبائل، بل امتزجت معها واندمجت فيها فكثر بذلك نسمها وازداد عدد متكلمي العربية، وسادت العربية سهول تامسنا وأزغار والكثير من مناطق سوس ودرعة وشرق البلاد وسايس وغرب جبال الريف.

لا غرو أن وجود هذه القبائل قد ساعد في الفترات المتأخرة من التاريخ المغربي وضعف الدولة على مواجهة الغزو الأجنبي، وخاصة في المناطق الساحلية حيث استخدمها الوطاسيون والسعديون ومن بعدهم العلويون في سبيل تحقيق غاية سامية تمثلت في الدفاع عن حوزة الوطن. إذ لا يمكن نسيان دورها في معركة واد المخازن زمن السعديين، وجهادها مع أبي عبد الله محمد العياشي، ومع المولى إسماعيل في رد العدوان وتحرير الثغور من هيمنة البرتغاليين والإسبان والإنجليز.

وإذا كانت هذه القبائل قد لعبت دورا إيجابيا في فترات من التاريخ المغربي، فإن فترات أخرى شهدت لها دورا سلبيا وخاصة في أيام ضعف السلطة المركزية. وتمثل ذلك في قيامها بالثورات والإخلال بالأمن العام، واعتراض القوافل التجارية، وتهديد المدن ومهاجمة الضيع

والحقول وإتلافها ونهب أصحابها. إلا أن الدولة كانت تقوم بتأديب العصاة وإعادة الأمور إلى نصابها بمجرد استرجاع عافيتها.

لم تفتأ الدولة تستخدم أبناء هذه القبائل وتستجش بهم وتقوم بإلزامهم القلاع والحصون في مختلف المناطق، وتعمل على تكليفهم بالمهام الأمنية من حراسة الطرق التجارية وخفر السواحل ومراقبة تحرك تلك القبائل المشكوك في ولائها للدولة وقمع حركات التمرد، مثل ما فعلت الدولة العلوية مع الودايا والمغافرة وعرب سوس.

أما من الناحية الدينية فقد شهدت هذه القبائل منذ العصر الوطاسي حركات دينية تمثلت في قيام الزوايا الصوفية بنشر تعاليمها فيما بينها، ولعبت دورا مهما في توجيهها دينيا واجتماعيا وسياسيا، وحضتها على الجهاد ومقاومة الغزو الأجنبي. ومن أشهر تلك الزوايا الزاوية الجزولية والناصرية والقادرية والفاسية والشرقاوية والوزانية وغيرها. ونشرت بينها تعاليم الدين، وحضتها على بناء المساجد والمسايد، وتعليم الأبناء القرآن والضروري من علوم الدين.

ومما لا يجوز نسيانه أن لهذه القبائل عادات وتقاليد احتفظت بها منذ أن غادرت موطنها الأصلي في الجزيرة العربية. ولقد تأثرت تلك التقاليد بغيرها من تقاليد وعادات الشعوب التي حلت بها عبر رحلتها الطويلة، وانعكس ذلك على حياتها العامة سواء كان ذلك في عادات الزواج أو الأفراح والمآتم أو في الأكل والشرب وإقراء الضيف وحماية المستجر مما يطول بالذكر شرحه.

أما عن اللباس فإن هذه القبائل لم تعد بعد حلولها بالمغرب الأقصى تتميز عن غيرها من القبائل، فالقشاب والقميص الطويل

والسروال والجلباب والبرنس والعمائم والأحذية المعروفة بالبلغة هو لباس عامة أهل البادية في المغرب، إذ يشترك في ذلك العرب والبربر ولولا اللسان والسحنة لما تميز بعضهم عن بعض إلا قليلا، وخاصة الرجال أما النساء فيمكن ذلك للمتمعن.

أما فيما يتعلق بالرقص والغناء فإن لهؤلاء العرب طربا متأثرا إلى حد قريب أو بعيد بالغناء البربري، فهم يستعملون البندير والدف وكوال والكبري والشبابة أو الليرة والغيطات والطبول والمقص الحديدي، ويقومون بالرقص الجماعي المعروف بالهيت وهو شبيه بالحيدوس البربري، ولهم مغنيات أو مطربات يقمن بتأدية الأغاني المعروفة بالعيطة المتأثرة إلى حد بعيد بها عند البربر من العيطات.

أما سكنى هذه القبائل فالأغلبية منهم في السهول والتلال والهضاب وتختلف منازلهم من حيث بناؤها من منطقة إلى أخرى، وتعرف تلك المنازل عادة باسم الخيمة تذكيرا بخيمة الشعر. وقد كانت الخيمة تضم عدة بيوت مبنية جدرانها من اللبن المجفف المخلوط بالتبن وسقوفها من عيدان الخشب والقصب والنبات المعروف بالسمر. وتكون تلك السقوف على شكل منحني على الجانبين شبيهة بالنباء القوطي وهو السائد في بلاد الهبط، وتضم الخيمة مرافق مثل المراح والزريبة والفرن والمحلب، ويحيط بكل خيمة عادة سياج من نباتات التين الشوكي باستثناء الباب أو المدخل. ويلاحظ أن الدوار عادة ما تكون فيه الخيام أو الدور متلاصقة أو قريبة من ذلك. وهذا هو السائد في بلاد الهبط وغيرها. إلا أن سقوف البيوت في سايس عادة ما تكون مستوية، والبيوت مستطيلة أو مربعة تقريبا كما يلاحظ أن بعض الخيام

توجد بها بعض الأشجار، وبعضها تلحق بها بعض العرسات الصغيرة أو البساتين. وتوجد بالدوار عادة بعض الآبار إما جماعية وإما في ملكية بعض الأسر.

وهؤلاء الأعراب اهتمام بتربية المواشي من الأغنام والأبقار وإنتاج مستخلصات الألبان وإنتاج مختلف الزروع والقطنيات والخضر، وللمرأة فيهم دور مهم في ميدان العمل، فهي بالاضافة إلى رعاية البيت تقوم بصنع المنسوجات الصوفية من جلباب وحنبل وغير ذلك.

ولهم مواسم دينية واحتفالية تعرف لديهم بالعمارات تضرب فيها الخيام وتلعب فيها الفرسان وتشد فيها عبيدات الرمى أو الرماة الأهازيج مرحا وتقريضا للركبان وتتباهى فيها فرسان القبائل رفعة ومكانة.

ولا ننسى أن لهذه القبائل عناية بتربية الخيل لرسوخ عادة الفروسية فيهم، وللفروسية تقاليد عندهم من لباس فخم، وسلاح جيد، وسروج جميلة موشاة ومزركشة، وأحذية مزخرفة، وبنادق محلة بالفضة، وخناجر مشدودة بحمائل من الحرير إلى غير ذلك من مظاهر الزينة والاحتفال. وعادة ما يكون ذلك في المناسبات كالأعياد والمواسم الدينية والعمارات. ولبعضهم ولوع بتربية الصقور للقنص والاصطياد.

لا غرو أن ما قدمناه لم يكن مجهولا لدى ابن البلد إذ لا يحمل الثمر إلى هجر كما يقال، وإنما أردنا بذلك إبلاغ من ليس له على بلدنا سابق علم، أو خبر، أو شيء من الإطلاع. والله يهدي إلى سبيل الرشاد وهو المستعان وبه التوفيق وعليه الاعتماد والسلام.

مدخل

إن الغاية من هذا الموضوع هو التعريف بأهم القبائل الواردة على المغرب والداخلة إليه، وتعين أهم المواطن التي استقرت بها والظروف والمراحل التي مرت بها خلال ذلك الاستقرار، وساعدت على انتشارها لأن ذلك الأمر ضروري لمعرفة نشأتها وظروف حياتها ولو بصورة عامة. وهذا ما دعانا إلى القيام بتحبير هذه السطور وجعلها كمدخل للموضوع، وهذا ما دفعنا إلى أن نقول:

أن أهم القبائل العربية الواردة على المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين تتمثل في القبائل العربية المضرية الحجازية الأصل والوطن، وهي التي تمثل أغلبية الأنسية العربية في المغرب الأقصى، وإلى جانب هذه القبائل هناك قبائل عربية أخرى من أصل قحطاني يمانية في الغالب مازجها غيرها من العدنانية المضرية على ما في ذلك من خلاف بين النسابة.

وإذا ما تأملنا في نسب عرب الحجاز الواردين على المغرب فإننا نجدهم يعودون إلى منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، فالجشمية يعودون إلى جشم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور. والهلالية يعودون إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور. والسليمية يعودون إلى سليم بن منصور. وقبائل رياح يعودون إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور فهم عدنانيون مضريون على الجملة.

أما القحطانية الواردون على المغرب في نفس الفترة التي وردت فيها العدنانية ويعرفون باسم المعقلية نسبة إلى جدهم الأعلى معقل، والخلاف كبير بين المؤرخين والنسابة في شأنهم. فالبعض يؤكد أنهم من أصل يمني لأن في اليمن قبيل يحمل هذا الاسم، وهذا ما يراه ابن خلدون الذي يؤكد أنهم من قحطان. إلا أن بعض المؤرخين يرون أنهم مزيج من القحطانية وغيرهم من العدنانية ممن التحق بهم واندمج فيهم من رياح والاثبج والعمور ومن فزارة وأشجع وسليم والمهاية من عياض من الاثبج والصباح من الأخضر الهلاليين وغيرهم. وكل هؤلاء يعود أصلهم إلى العدنانية، في حين الكثير من هؤلاء المعقلية يرفعون نسبهم إلى جعفر من الهاشميين، ويؤكد على هذه النسبة الجعفرية حتى إن الناصري صاحب كتاب الاستقصاء الذي ألف كتابا في الموضوع عنوانه (طلعة المشتري في تحقيق النسب الجعفري يؤكد ذلك ولا يبعد أن يكون قد التحق بهؤلاء المعقلية بعض آل جعفر، كما التحق بهم غيرهم عبر الزمن. وإن هؤلاء الجعفرية كبقية الهاشميين كانوا معرضين للملاحقة والمتابعة من قبل أعدائهم. ولا غرو أنهم شاركوا مثلهم مثل العلوية في كثير من الثورات ضد العباسيين والأمويين. واضطرتهم ظروف الاضطهاد إلى الإختفاء والالتحاق بغيرهم والإظعان معهم في القفر ومصاهرتهم والأخذ بأساليب حياتهم. بل في هؤلاء المعقلية اليوم وخاصة الملتحقين بالساقية الحمراء من يرفع نسبه إلى ابن أو حفيد من أبناء إدريس بن عبد الله دوحة الشرف في المغرب، وهم يحتفظون بالكثير من الوثائق في هذا الشأن ونعود إلى كلمة ابن خلدون الشهيرة: إن الناس مصدقون في أنسابهم.

ويبدو أن هؤلاء المعقلية قد دخلوا إلى المغرب مع الهلالية وعلى رأي ابن خلدون أن دخلوهم لم يكن من الكثرة بمكان، بل يعود ذلك إلى ما انضاف إليهم من أبناء القبائل الأخرى. ويبدو أن هؤلاء المعقلية في أول أمرهم لم يكن لهم من القوة والعصبية والكثرة ما يجعلهم يرفضون التحاق غيرهم بهم لتكثير أعدادهم وشد عضدهم خاصة وأنهم قد وجدوا في مواطن غريبة عليهم ترابا وسكانا، إذ كان يجاورون قبائل شديدة المراس والقوة والمنعة كقبائل زناتة ولواتة والمصامدة.

عمل هؤلاء المعقلية على تجنب عبور فجاج الأطلس في أول الأمر وآثروا الانتشار في تلك المناطق الواقعة شرق وجنوب الأطلس، فالمناطق الواقعة على حوض ملوية وسهل أنكاد وواد صا ووادي غير وواد غريس وواحات تافيلالت والساورة ووادي درعة وإلى المحيط بالأطلس على واد نول بسوس وواد ماسة، هي المناطق التي انتشرت فيها هذه القبائل. ولم يتهيأ لهذه القبائل المعقلة ولوج االمناطق الداخلية للمغرب إلا في تاريخ متأخر حيث انتشروا في السهول الغربية ومنطقة تادلا وسايس.

قسم النسابون هؤلاء المعقلية إلى ثلاث فروع وعينوا مواطنهم الأولى التي استقروا فيها كما يلي:

ذوي عبيد الله: وهم الذين انتشروا في المناطق الواقعة غرب تلمسان إلى وجدة وتاوريرت وعلى حوض ملوية إلى مصبه وعلى واد صا ونزلوا على قصور توات.

ذوي منصور: وهؤلاء انتشروا على ملوية العليا وواد درعة إلى واد نون في سوس وشكل هؤلاء أغلبية بني معقل بل امتدادهم في الواقع من ملوية العليا إلى درعة إلى نون ببلاد سوس.

ولذوي منصور فروع أهمها أولاد أبي الحسين الذين استولوا على قصور الصحراء فيما بين تافيلالت إلى تيكورارين وأولاد الحسين، وهم الأكثر أعدادا ويمثلون جمهورهم وهم ينتشرون على وادي درعة إلى نون ويؤمون القفر والصحراء فيما وراء الأطلس، ومن ذوي منصور عمران ويطلق عليهم العمارنة وأولاد المنبأ ويعرفون بالمنبات وهؤلاء هم الأحلاف الذين استطاعوا الوصول عبر فجاج الأطلس إلى وداي تازا وغساسة ومكناسة وشرق سايس بعد انتقالهم من الشرق المغربي. وربما اتجه بعضهم من أنكاد غير أن أبا القاسم الزياني يرى أن هؤلاء الأحلاف كانوا يشكلون على عهده عدة عشائر متفرقة منها سقونة وأولاد جرار والودايا والمغافرة وأولاد السبع وهؤلاء مواطنهم اليوم متفرقة، فسقونة ناحية وجدة وأولاد جرار بماسة والمغافرة بالصحراء جنوب وادي درعة. وتلحق بهؤلاء التكنة وأولاد السبع بنواحي مراكش والساقية الحمراء وهذا يدل على أن هؤلاء الأحلاف على حسب رأي الزياني أصبحوا يشكلون قبائل وعشائر مختلفة المواطن واسعة الانتشار.

أما الفرع الثالث للمعقلية فهم ذوي حسان ومواطنهم ينتشر على درعة إلى واد نول في اتجاه الساقية الحمراء وزاحموا الملثمين من كدالة ومسفوة، ولربما تصاهروا مع بعضها كما أنهم اتجهوا شمالا في سوس وزاحموا قبيلة جزولة وغيرها في المواطن، وامتزج بعضهم بها. ويبدو أن

قبيلة التكنة وقبائل أكلميم مثل مختار وأولاد جلال وذوي بلال وبكار تعود إلى ذوي حسان، ولا يبعد أنها امتزجت مع غيرها من بعض عشائر البربر عبر الزمن بحكم التساكن والجوار في الموطن والبيئة وأساليب العيش.

وإن لذوي حسان فروعا متعددة مثل الشبانات وزرارة ودليم وهم في الواقع أبناء عمومة واحدة لأن شبانة بن مختار أخ لحسان، وهؤلاء الآن يوجدون في مناطق داخلية من المغرب كمنطقة مراكش وسهل أنكاد وناحية فاس ومكناس.

أما عن بقية المعقلية كقبيلة الرحامنة ناحية الحوز وقبيلة أحمر وعبدة فهم معقلية على الجملة وما قبيلة الودايا إلا إحدى عشائر بني معقل التي حلت بداخلية المغرب في العهد الإسماعيلي العلوي والتي كان لها دور خطير في الحياة المغربية العامة سياسيا واجتماعيا فكل هذه القبائل معقلية.

وفي الترجمان المعرب للزياني وعند الكانوني في كتابه "آسفي وما إليه" أن قبيلة الحياينة بنواحي فاس وقبيلة بني حسن بالغرب وسايس وأولاد بوعيطة بتامسنا هم من القبائل اليمنية. ومعلوم أنه لم يدخل للمغرب من قبائل اليمين على شكل قبائل الا بنى معقل.

وإذا ما عدنا لنذكر مواطن القبائل المضرية العدنانية في المغرب فإن هذا الموضوع سنجده متشعبا نسبيا نظرا لتعود الانتقالات التي حصلت لهذه القبائل منذ دخولها للمغرب. فما من قبيلة إلا عرفت نقلة من موطن إلى آخر اختيارا أو قسرا. إما بواقع من ضغط قبيلة أقوى أو

رغبة في الحصول على أرض أخصب أو بإجبار الدولة لها عقابا أو لتحقيق غاية سياسية أو استراتيجية أرادتها الدولة.

القبائل الجشمية:

إن هذه القبائل متعددة الأسماء إلا أن أشهرها جشم وهم بنو جشيم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور وانتقلوا إلى المغرب من إفرقية على عهد الموحدين. وهؤلاء الجشمية مازجهم غيرهم من قرة والعاصم والمقدم والخلط، إلا أنهم بالرغم مما مازجهم من القبائل فإن اسم الجشمية هو ما يطلق على جمهورهم على سبيل التغليب. ويؤكد ابن خلدون على أنهم قد استوطنوا تامسنا بنواحي أسفي على عهد الموحدين وجزء من عهد بني مرين ويظهر أن من أشهر بطونهم قبيلة سفيان.

سفيان: كانت سفيان إحدى بطون جشم قد حلت بأطراف تامسنا على عهد الموحدين إلا أنها نتيجة صراعها مع قبيلة الخلط فإنها اضطرت إلى التخلي عن أراضيها لصالح المنافسين والتجأت إلى سوس حيث ظلت ردحا من الزمن إلى أن عادت إلى أراضيها على عهد بني مرين. وكانت بها رئاسة ونجدة وبأس ونخوة. وعرف شيوخها بالنباهة من بني جرمون ومن جملتهم أولاد مطاع من الحِرث واستجاش بهم الملوك في حروبهم فكانت البسالة إحدى شيمهم، إلا أنهم اليوم ومنذ العصر السعدي قد انتقلوا من تامسنا إلى الغرب منافسين غيرهم على الحوض سبو كقبيلة مختار وجاوروا بني مالك من سويد.

الخلط: أما الخلط فهم بنو المنتفق في أصلهم، المؤلفون من بني معاوية وبني عوف، وحلوا هم الأخرون بتامسنا مع سفيان لعهد الموحدين وبني مرين، وشاركوا في كل الحركات السياسية والعسكرية

والجهادية من الموحدين والمرنيين، ونافسوا سفيان، وفي زمن المرنيين فرفعت أقدارهم، وبلغوا مراتب المجد والثروة والجاه، وصاهروا الملوك ببناتهم، إلا أنهم نكبوا بعد ذلك، ولم تعد لهم من مكانة إلا أن زمن السعديين الذين استخدموهم واستجاشوا بهم ضد البرتغاليين في معركة وادي المخازن الشهيرة بالقرب من القصر الكبير. ومنذ ذلك التاريخ وهم ببلاد الهبط من أزغار شمال سبو وعلى حوض لوكس إلا أن بعضهم انتقل إلى مرتفعات زكوطة بالقرب من زرهون على زمن العلويين، وهؤلاء الخلط ينقسمون حاليا إلى جماعتين أو فرعين في أزغار وهم الخلط والطليق، ومعهم بعض من غيرهم كأولاد عمران والبدور والرياحين وأولاد عامر والأحلاف وبداوة.

رياح: وهم بنو أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وقد انقلوا من إفرقية بتونس إلى المغرب على عهد يعقوب المنصور، وانزلوا ببلاد الهبط بالقرب من قصر كتامة أو القصر الكبير، واستقروا هناك طيلة زمن الموحدين، وكانوا أنصارا لهم، ولم يقبلوا بالخضوع للمرنيين عند ظهورهم وحاربوهم وقتلوا زعيمهم عبد الحق وابنه إدريس، إلا أن عثمان بن عبد الحق ثأر لأبيه، وشرد قبيلة رياح، واستمر بها القتل حتى لحقت بأعالي المرتفعات، غير أن المرنيين تتبعوا بقاياها لحد الفناء فلم يعد لرياح من وجود إلا بقية بقايا انغمرت في غيرها من القبائل. ولا تزال بعد الدواوير في بلاد الهبط تعرف لحد الآن بأولاد الرياحي ممتزجة بغير من عرب الخلط.

بنو جابر: دخل هؤلاء مع بني جشم إلا أن بعض المؤرخين يرى أنهم من سدراته ولواتة كابن خلدون في حين يرى أخرون أن جابر هو

ابن جشيم، ويرى آخرون أن قبيلة ورديغة هي من بني جابر، ويبدو أن بني جابر لما جاوروا البربر في سكناهم سفوح الأطلس حدث تصاهر بين القبيلين العرب والبربر فاختلطت الأنساب فيما بينهم نتيجة ذلك التصاهر والتحالف الذي حدث بين الفيئتين. فكان من نتيجة حدوث الاستعراب لكثير من البربر فعمت العربية سهول تادلا وهضاب ورديغة، وأصبح اللسان العربي لحمة وأرومة بينهم. ولقبائل هؤلاء أسماء متعددة كبني موسى وبني عمير والسراغنة وأولاد البحر والكفاف والسماعلة والأعشاش والمطارفة وبني مسكين وعكارة والسوالم ويعقوب وبنو عنان، وانضاف إليهم المزاب وحميان وعرف بنو جابر بالثورات والتحاقهم بالمرتفعات وسفوح الأطلس عند فشلهم في مواجهة الجيش.

دكالة: إن عرب دكالة أغلبيتهم من الجشمية والهلالية ويرى الكانوني أن دكالة كمنطقة تنقسم إلى قسمين: دكالة البيضاء وهي الشمالية، ودكالة الحمراء وهي الجنوبية. وهو ينقل عن أبي زيد عبد الرحمن الفاسي القصري صاحب كتاب الأقنوم أن بدكالة عدة قبائل عربية لبني هلال ولبني معقل كأولاد عمران وأولاد دليم والمنابهة ومن المضربية الشياظمة كالحرت وعامر وغير هؤلاء كأولاد بوعزيز أو الغربية وأولاد فريج والعونات. ويرى الكانوني أن عبدة في جنوب دكالة ثلاث عمائر كربيعة والبحاثر وآل عامر. وحدث في دكالة بين هؤلاء العرب والبربر من سكانها القدامى تمازج وساد بينهم اللسان العربي بحكم تغلب العرب العددي على تلك المناطق، وحصول

الانصهار بين الأورمتين فتنوسيت الأنساب ولم يعد من نسب إلا اللسان.

عرب الشاوية: تمثل الشاوية المنطقة الواقعة شمال أم الربيع من تامسنا، وهي عبارة عن مجموعة من القبائل العربية التي امتزجت بغيرها من قبائل البربر. وقد عمل الموحدون على استجلاب الهلالية والجشمية إلى المنطقة فكانت قبائل العاصم وقرة والمقدم والأثبج من عرب الحجاز أسبق للحلول بهذه المنطقة ويلي ذلك الخلط وسفيان ولم يطلق اسم الشاوية على هؤلاء إلا في زمن المرنيين الذين استجلبوا قبيلة سويد من رياح في القرن الثامن بعدما استعانوا بهم على حرب بني عبد الواد ومنحوا أبناؤها سهول تامسنا، وقد قدموا لهم عددا مهما من الشياه لتربيتها ورعيها فعرف هؤلاء منذ ذلك التاريخ باسم الشاوية، وبهم من البربر مديونة وزناتة ومزاب. ومن العرب أولاد بوعطية وأولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي. ويكون هؤلاء بوثقة مغربية لحمتها ونسيجها عادات وتقاليد وتصاهر ومناهيج حياتية مشتركة ولسان عربي مبين.

الرحامنة: وهي من القبائل المعقلية التي حلت مؤخرا على عهد السعديين ثم العلويين وهي تضم عناصر معقلية وجشمية وتهيمن على منطقة سهلية شبه جافة تقع فيما بين السراغنة في الشرق، ودكالة وأحمر في الغرب والشاوية في الجنوب وزمران في الشمال. ومن أفخاذها البراييش والغرابة وأولاد عقيل ودليم وأولاد سلامة، وكلهم من أصل معقلي. ونظرا لفقر تربة أراضيهم وضعف سقوط المطر فقد انعكس ذلك على حياتهم بأسا وشدة ونال جيرانهم وخاصة أهل مراكش الشيء الكثير من

ذلك، واضطر المخزن إلى الإيقاع بهم في كثير من الأحيان واتخاذ أبناءهم جيشا وجندا (راجع الصديقي).

عرب بني حسن: وتقع هذه القبيلة في منطقة الغرب وعلى جزء من سايس وهي معقلية ومن عشائرها أولاد يحيى والتوازيط وعامر وغيرها. وهي دائمة الصراع مع جيرانها من سفيان وبني مالك والشراردة، وتعرضت للمشاكل نتيجة انحيازها لبعض الملوك أو الأمراء دون آخرين عبر التاريخ السعدي والعلوي، وطالما ضايقت ما جاورها من المدن كمدينة سلا. واضطر المخزن إلى إيقافها عند حدها لما كانت تقوم به من قطع الطريق ومهاجمة القوافل والمسافرين وخاصة في الأيام العجاف الناتجة عن شحة الأمطار وضعف الإنتاج.

عرب زمران: ويحتل هؤلاء العرب شرق منطقة الدير وهم مزيج من العرب اليمنية والمضرية كالخزرج، كما ورد عند الزياني في الترجمان المعرب ويجاورون من البربر مسفوة وهنتفة وفطواكة ومن العرب السراغنة والرحامنة. وتعرضت عبر تاريخها للنقل من موطنها، ثم أعيدت إليه زمن العلويين واستخدم الكثير من أبنائها في الجيش المخزني في فترات مختلفة.

عرب الشياظمة: وهؤلاء يهيمنون على المناطق الساحلية جنوب الصويرة وهم مزيج من العرب المعقلية والمضرية، فالحرث من أولاد مطاع والحرث من المضرية كما بها من البربر مسكالة ورجراجة وسادتهم العربية وامتزجت دماؤهم ويجاورون قبيلة حاحة البربرية وذوي بلال المعقلية الذين شاركوهم في نهب الصاكة بالصويرة أيام مولاي سليمان (أنظر إيقاظ السريرة للصديقي).

عرب الشراردة: ويتكونون من مجموعة من القبائل ذات الأصل المعقلي مثل دليم وزرارة والشبانات وتكنة من حسان والشبانات من شبانة أخ حسان من مختار. وانتقلوا من واد نول إلى الحوز عبر سوس، وعلى يد الشبانات كانت نهاية السعديين، وعمل المولى إسماعيل على نقل الكثير منهم إلى أنكاد وظهر منهم المهدي الشرادي مؤسس زاويتهم بنواحي مراكش إلى أن تم القضاء عليها من قبل مولاي عبد الرحمن بن هشام، ونقل عامتهم إلى أزغار وسايس وبعضهم يوجد في سيدي قاسم وبدكالة وبفاس وناحيته ومنهم بالساقية الحمراء وواد الذهب وخاصة دليم. كما يوجدون مع الأحلاف سهل تريفة كالكراريين والمنابهة والعتامنة.

عرب زعير: وهي من المعقلية التي حلت بالهضبة الوسطى وتقع فيما بين زيان من البربر في الشرق والمذاكرة والزيايدة في الغرب وقبيلة السهوليين في الشمال من الغرب واستخدم أبناؤها في الجيش الإسماعيلي، وتحالفت مع زيان البربرية وزمور الشلح تهربا من الالتزامات المخزنية. وطالما هاجمت مدينة الرباط في أزمنة ضعف السلطة إلى أن عمل مولاي محمد بن عبد الرحمن على إيقاف اعتداءاتها وتأديب الجناة منها، وبحكم الجوار والتحالف مع البربر حدث بينهم تصاهر وتمازج إلا أنها احتفظت بعاداتها ولغتها العربية.

شراقة: كان هؤلاء من قبائل تلمسان دخلوا المغرب في زمن مولاي الرشيد، استجاش بهم وبقبائل أنكاد وبشراقة من العرب الشجع وبنو عامر ومن البربر مديونة وهوارة وبني سنوس. وعمد المولى الرشيد

إلى فاس ثم إلى شرق سايس بعد أن كثرت الشكايات بهم مانحا إياهم بلاد صدينة وفشتالة ما بين سبو وورغة مجاورين لعرب حميان والمهاية وأولاد جامع وأولاد عيسى والحياينة وبقايا الودايا.

عرب ورديغة: وهم من بني جابر ويحلون في إسماعلة والرثم وأولاد البحر وأولاد سمير وشرقاوة وبعضهم يرفع نسبه منهم إلى بني جابر من جشم، وبعضهم يرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، والنسابون مختلفون فيهم بحكم تمازجهم مع البربر إلى أن لسانهم عربي كباقي بني جابر.

أولاد سبع: وهؤلاء عرب من المعقلية عبروا إلى منطقة الدير بغرب مراكش وعرفوا بشدتهم واستطالهم على جيرانهم فعمل المولى محمد بن عبد الله على مهاجمتهم ونقلهم إلى سوس ومطاردتهم إلى الصحراء، ويوجد بعضهم في واد الذهب وبقاياهم لا تزال بناحية مراكش، ولربما عاد بعضهم إلى مواطنهم بالدير بعد أن طردوا منها. وبعد أن حلت بمواطنهم زمران ردحا من زمن ثم عادت إلى موطنها.

عرب الساقية الحمراء وواد الذهب: لا نستطيع حصر قبائل الصحراء في هذا المدخل البسيط لأن عددها كبير ويمكن القول إن أغلبيتها من المعقلية من ذوي حسان وإن كان قد مازجها وغيرها من المضرية العدنانية ومن البربر مثل صنهاجة وجزولة وكلها لها فروع في داخلية المغرب، ومن أهم هذه القبائل:

- تدرارين: ومن فروعها أهل الطالب علي وأولاد علي حسين وهم في الترس والقعدة والساقية.

- العروسيين: وأهم فروعها أولاد الخليفية وأولاد سيدي بومهدي وأولاد القاسمية وهم بواد الذهب.

- رقيبات الساحل: وأهم فروعهم السواعد وأولاد داوود والمؤدنين وأولاد الشيخ وتهلات والبويهات. وهم في الترس وأدرار ستوف بواد الذهب.

- رقيبات الشرق: ومن فروعهم آل إبراهيم ومنهم أولاد داوود وآل سيدي علال وهم بالساقية.

- أولاد الدليم: ومن فروعهم أولاد تكودي وأولاد يوعمر وأولاد الوديقات جنوب واد الذهب.

- أولاد بوسباع: من فروعهم أولاد الحاج ومنهم آل سيدي عبد الله وأولاد الطالب والطاهر وهم بواد الذهب ومنهم المويسات وأولاد إبراهيم وقد انتقلوا من غرب مراكش.

- المناصير: ومن فروعهم سويلم وعيدي وإبراهيم

- التوبتل: ومن فروعهم الجومعية والخليفية.

ومن أهم الأسر ذات المكانة الاجتماعية والعلمية والدينية في الصحراء آل الشيخ ماء العينين، وهم يرفعون نسبهم إلى أحمد بن عبد الله بن إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر دفين زرهون.

أما في شرق المغرب وعلى ناحية وادي غريس فمن أهم القبائل العربية قبيلة الصباح بن الأخضر بن عامر، وبها من ولد رياح الهلاليين كذلك وكثيرا ما عرفت هذه القبائل التمرد والدخول في حلف مع برابرة آيت عطا.

"فروع من قبائل ببلاد الهبط"

إن بلاد الهبط تشتمل أساسا على قبيلة الخلط والطليق، غير أنها خالطتها فروع من قبائل أخرى فهناك أولاد الرياحي من بقايا رياح وحسناوة من بني حسن وأولاد جابر من بني جابر وأولاد عمران من العمارنة الأحلاف. والحلالفة منهم كذلك الشليحات من درعة والكرزازة من كرزازيا الساورة والرزيقات من الصحراء وإلى الشمال من الخلط توجد قبيلة بداوة من معقل ومزورة والغريبة من دكالة وربما كانت مزورة من زرارة الشرادة. وفي سهل فحص طنجة توجد دوائر لأولاد عامر، وفي سهول بني عروس يوجد العزابة، وهم خليط من العرب كما يوجد في سهول الهبط بعض الأشراف مثل الوزانيين في الدشيرة بالخلط والريسونيين في أولاد سلطان بالقرب من ثلاثاء ريسانة.

المرابطون والعرب:

استطاع المرابطون على عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببسط نفوذهم على المغرب الأقصى وعلى الجزء الغربي من المغرب الأوسط حيث شمل المناطق الواقعة إلى الغرب من جزائر بني مزغنة، وشملت مناطق كانت قد استقرت بها قبائل عربية هلالية وجشمية منفصلة عن إخوانها من عرب إفريقة. وقد عمل يوسف بن تاشفين على استغلال وجود هذه القبائل في مشروعاته في غزو الأندلس لرد عاديات العدو المسيحي المتكالب على ثغور المسلمين في الأندلس. وخاصة في الثغور العليا. ويحدثنا ابن الكردوس صاحب تاريخ الأندلس أن يوسف

ابن تاشفين قد استخدم أعدادا مهمة من هؤلاء العرب في أثناء جوازه الثالث إلى الأندلس والذي تم سنة 490، وأن جيشه اشتمل على جيش جرار من المرابطين والعرب والأندلسيين في تلك الموقعة التي عرفت تاريخيا باسم موقعة كنسويجرا. وابن الكردوس عندما يقول العرب يعني بهم عرب إفرقية لا عرب الأندلس) راجع أثر القبائل العربية ص 63.

وهذا ينبؤنا في أن هؤلاء العرب التحقوا بالمغرب لينضموا تحت اللواء المرابطي استجابة لدعوة ابن تاشفين ورغبة في الجهاد وعوائده من الغنائم. وسوف لا نذهب بعيدا إذا قلنا إن الكثير منهم قد حظى من الدولة بالاعتبار والمنح التي لا يستبعد أن يكون من ضمنها الأراضي المعطاة سواء في الأندلس والمغرب وخاصة لأولئك الذين أبدوا رغبة وإخلاصا في خدمة الدولة.

ويبدو أن تواجد هؤلاء العرب قد ازدادت أهميته وتواجده على زمن الأمير علي بن يوسف الذي استدعى عرب المغرب الأوسط وافرقية للجهاد في الأندلس حيث شارك هؤلاء العرب في معركة اقليش بغرب الأندلس وأظهر هؤلاء الهلالية فيها من الشجاعة والنبالة ما جعلهم محط إعجاب وذلك سنة 501 - 1108م كما ذكر ذلك ابن القطان في كتابه نظم الجمان. كما أن الأمير علي بن يوسف اصطحب معه الكثير من هؤلاء العرب في جوازه الثاني مما يدل على أن هؤلاء العرب قد بدأوا يتجهون في سيرهم ورحلتهم نحو الغرب تدفعهم حوافز مشجعة للإقامة والحصول على المنافع التي ما كان لهم الحصول عليها لولا القبول بخدمة الدولة والعبور إلى العدوة الأندلسية.

الموحدون والقبائل العربية النازلة بالمغرب

العرب وعبد المؤمن بني علي:

يعتبر عبد المؤمن بن علي هو أول من عمل على نقل القبائل الهلالية الجشمية وغيرها إلى المغرب الأقصى من الموحدين، وهو وإن لم يكن قد عمل على نقل جل تلك القبائل فإنه كان هو البادئ بذلك. بل يعتبر رائد هذه الحركة قبل غيره من الموحدين. وإن كان يعزى نقل أولئك العرب إلى المرابطين قبل غيرهم وهو أمر يحتاج إلى كثير من العناية والدرس والبحث عن وثائق أقدم مما هو موجود بين يدي المؤرخين حاليا. وحتى لا نذهب بعيدا فإننا نقول: بعد أن تمكن عبد المؤمن بن علي من بسط نفوذه على المغرب الأوسط وإفرقية سنة 541 هـ وإخضاع عرب جشم والأثبج من عرب المغرب الأوسط وتقديمهم البيعة فإن ذلك لم يكن ليرضي الكثير من عرب إفرقية إذ سرعان ما قاموا بعمل مضاد تمثل في مخالفة صنهاجة، وهاجموا والي عبد المؤمن على إفرقية عبد الله بن واندين وقتلوه وقاموا بمحاصرة القيروان ومدينة باجة مما دفع بعبد المؤمن إلى إرسال ابنه عبد الله في جيش كثيف لمواجهة الموقف.

لم ينتظر عرب إفرقية من الأثبج وزغبة وبني قرة وصول جيش الموحدين إلى إفرقية بل بادروا إلى لقائه في المغرب الأوسط حيث كان اللقاء في ناحية سطيف وذلك سنة 547 هـ ، وقد تمخض ذلك اللقاء عن هزيمة تلك القبائل بالرغم من البسالة التي أظهرها فرسانها. واستولى الموحدون على ما تركه أولئك العرب من أثاث ومال وعيال وأسر كثير من محاربهم، إلا أن عبد المؤمن ميز في الأسر بين النساء والرجال حيث

احتفظ بالنساء والعيال ونقلهم إلى مراكش مكرما لهم ووزع الباقي من الأسرى على مختلف سجون البلاد.

وفي زمن الموحدين أدرك عبد المؤمن بن علي أن سياسة الاستيئلاف لهؤلاء العرب هي أجدى من سياسة القوة والعنف إذ سرعان ما أصدر أمره بالعفو عنهم ودعا أمراءهم المعتصمين بجبال الأوراس إلى القدوم عليه بمراكش مانحا إياهم الأمان واردا عليهم حريمهم وعيالهم فوفد عليه من أمرائهم من أمثال حباس بن الرومية وديفل بن ميمون وابن معرف فاستألفهم ومنحهم المنح والأعطيات على ما ورد عند البيدق صاحب أخبار المهدي فعاد هؤلاء إلى مواطنهم بإفرقية.

يبدو أن عمل عبد المؤمن لم يكن عملا حاسما في إنهاء ذلك الصراع وبصورة كاملة حيث ظلت الأحوال غير مستقرة والقبائل غير مستسلمة بالكامل. إذ لم يتم ذلك إلا في سنة 554هـ حيث يرى ابن أبي زرع أن هؤلاء العرب لم يكونوا قد أسلموا قيادتهم بصورة تامة، ويبدو ذلك في أن عبد المؤمن عندما دعا هؤلاء العرب إلى الجهاد معه في الأندلس تلكأوا في الطاعة وتعللوا بالعلل ورغبوا في الرجوع إلى مواطنهم بإفرقية بعد أن أخذ منهم العهود والمواثيق. وإذا كان عبد المؤمن قد أذن لهم في الانصراف إلى مواطنهم فإنه قرر أن يأخذ من كل قبيلة منهم ألفا من رجالها ويبعث بها إلى المغرب الأقصى وقد حدث هذا الحدث في غرب الجزائر ناحية وهران.

يبدو من هذا أن أول توطين حقيقي لهؤلاء العرب كان في زمن عبد المؤمن بن علي حيث منحهم الخليفة الإقطاعات الواسعة، إلا أن ابن أبي زرع وغيره من المؤرخين لم يذكروا لنا تلك المواطن الأولى التي استوطنها هؤلاء العرب زمن عبد المؤمن، غير أنه من الواضح أن عبد المؤمن لم يكن ليبعدهم كثيرا عن عاصمته حتى يكونوا إلى المراقبة أقرب وإلى التعهد والإخضاع أيسر. وكان هؤلاء العرب أغلبيتهم من بني رياح وبني جشم وبني عدي ويصف ابن صاحب الصلاة جموع هؤلاء العرب بقوله (ضاق بهم الفضاء ونافسوا الحصن والذباب في كثرته) انظر المن الإمامة ص 144.

إن نقل هذه الأعداد الكبيرة إلى المغرب من هؤلاء العرب يؤكد أن عبد المؤمن هو أول من فكر في توطين هذه العناصر العربية في المغرب. أما عن حوافز ودوافع عبد المؤمن فهي كثيرة منها الرغبة في عزل جزء من هؤلاء العرب بعضهم عن بعض للتقليل من فعاليتهم في القيام بالثورات وإثارة المشاكل وإشاعة الفوضى في ربوع الدولة الموحدية ومنها الرغبة في استئلافهم والاستجاش بهم في حركات الجهاد بالأندلس أو تسخيرهم في مواجهة المناوئين للدولة من البربر وغيرهم إذا ما بدا منهم عصيان أو انتزاء. بالإضافة إلى رغبته في ملء ذلك الفراغ الذي حصل في بعض المناطق نتيجة الحرب الطويلة التي خاضها المرابطون والموحدون ضد البرغواطيين وغيرهم من صنهاجة في تامسنا وغيرها من المناطق وكل هذه الاحتمالات واردة تؤكدها ظرفية نشأة الموحدين عند التأسيس.

ويبدو أن يوسف بن عبد المؤمن قد سار وفق سياسة والده مستفيدا من هؤلاء العرب في حروبه في الأندلس. وفي تقديري إن بعض أولئك العرب القادمين للجهاد من إفرقية قد فضل الإقامة بالمغرب والقيام بخدمة الدولة مستأنسا بمن سبقه من أبناء عمومته ومستمرئا لتلك الحظوة التي كان يحظى بها أولئك الذين سبقوا إلى تلك الخدمة تبعا لسياسة الاستيئلاف والاصطناع التي كان يوسف بن عبد المؤمن يمارسها معهم عملا بتوجيهات أبيه. ولقد أبدى هؤلاء العرب ضروبا من البسالة والشجاعة أثناء غزو أبي يعقوب يوسف غرب الأندلس، إذ كانوا لا يزالون شديدي المِراس وقريبي العهد بنخوة البداوة.

يعقوب المنصور والعرب:

كان يعقوب المنصور قد تولى الخلافة بعد أبيه وكان شيوخ الموحدين قد بايعوه وتابعهم في ذلك شيوخ العرب وأتت عرب المغرب الأوسط من زغبة وغيرهم لتقديم تلك البيعة بقصر مصمودة وكذلك وفدت عليه قبائل عربية لتقديم البيعة وهو برباط الفتح وكان ذلك سنة 580هـ/1184م.

واجه يعقوب المنصور مشكلة بني غانية بقايا المرابطين الذين استطاعوا التسلل إلى إفرقية وإغراء عربها بالانضمام إليهم والاستعانة بمماليك مصر الذين أرسلوا قراقوش الأرمني إلى إفرقية لمعاضدة بني غانية، وقد تمكن يعقوب المنصور من الانتصار على أعدائه وتشريدهم وذلك سنة 583هـ. إلا أن أولئك العرب من الهلالية والسليمية والجشمية بعد أن أبعدوا الرحلة في القفر فرارا من العقاب فإنهم سرعان ما

تراجعوا عن موقفهم وآثروا تقديم الطاعة والإذعان بدلا من التمادي في الانتزاء والعصيان. فعمل المنصور على نقل قبائل الهلالية من بني عامر وقبائل جشيم بن معاوية بن بكر وقبيلة رياح إلى المغرب الأقصى على ما عند ابن عذارى.

عمل يعقوب المنصور على إنزال قبيلة رياح ببلاد الهبط فيما بين القصر الكبير والبحر إلى أزغار الشامل لمنطقة الغرب أما القبائل الأخرى من جشم وزغبة وغيرهم فقد أنزلوا ببلاد تامسنا ولا شك أنهم قد وجدوا في ذلك البسيط أبناء عمومة لهم قد سبقوهم إليها منذ زمن عبد المؤمن بن علي إلا أن الجزء الأعظم من الهلالية وغيرهم قد حلوا في هذه الفترة.

كان يعقوب المنصور الشخصية الموحدية الثانية التي عملت على نقل العرب من الهلالية والجشمية إلى المغرب وذلك محاولة منه لعزلهم عن بقية إخوانهم وللحد من شوكتهم وتحويلهم من قبائل رعوية منتجعة للقفر ومهاجمة للمدن وتعيث في الأرض فسادا إلى قبائل مستقرة ومنتجة وخاضعة للدولة وقد قصد يعقوب المنصور بعمله هذا تحقيق غرض آخر وهو تعمير أراضي تامسنا التي خلت من سكانها البرغواطيين منذ عهد المرابطين وإعادة النشاط الاقتصادي إليها وتحويل هؤلاء الهلالية إلى قبائل غارمة تستفيد الدولة من إنتاجها ومغارمها إتاوة وضرائب وزكوات وضرب البعوث عليها أثناء قيام الحروب التي تخوضها الدولة داخليا وخارجيا وخاصة عند قيامها بمهمة الجهاد في الأندلس.

لقد تم للمنصور ما هدف إليه من توطين الهلالية وغيرهم في البلاد وإن قيل إنه قد صرح في آخر أيامه أنه ندم على إدخال تلك القبائل إلى المغرب إلا أن الواقع غير ذلك، فالأراضي التي عمرها أولئك العرب في تامسنا والحوز وتادلا وبلاد الهبط كانت هي تلك المناطق التي كانت تقدم لخزينة الدولة الجزء الأعظم من المداخل في شكل زكوات وخيل وزرع وكراع وضرع وكان سكانها هم المنتجون فعلا وبإنتاجهم ملأت الدولة أمراسها وعرف المغرب الازدهار الاقتصادي أيام الموحدين وغيرهم.

كما تجدر الإشارة إلى أن الدولة كانت عاجزة عن الحصول على ما تريده من مثل تلك القبائل التي كانت دائمة الاعتصام بثنايا الجبال والمرتفعات المعتزة على الدولة بعصبيتها وأنفتها الممتنعة عنها بحصونها في المناطق الوعرة وكثيرا ما استخدمت الدولة أبناء القبائل والهلالية وغيرها لإرغام القبائل الأخرى على الخضوع مستفيدة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية.

ولا غرو أن هذه القبائل العربية قد قامت في فترات مختلفة بعدة ثورات وفتن وأحدثت كثيرا من الاضطرابات وشاركت غيرها في ذلك من قبائل البربر إلا أن المتأمل لتاريخ البلاد سيجد أنها كبقية غيرها من القبائل كانت تدفعها إلى ذلك عوامل مختلفة من نعرات عصبية ونزوات شخصية ومظالم واستبدادات بعض المتنفذين أو دفاع قبيلة عن حماها ضد قبيلة أخرى أو مناصرة ملك ضد آخر كل هذه العوامل واردة ولها ما يؤيدها من أحداث التاريخ وعلى العموم فالقبائل البربرية لم تكن أقل منها إحداثا لتلك الفتن والاضطرابات عبر التاريخ المغربي الطويل.

مشاركة الهلالية في معركة الأرك:

كانت ظروف الأندلس المتردية ومحاولة الإسبان استرداد ما فقدوه في معركة الزلاقة على عهد المرابطين وما مني به ملوكهم وأمراؤهم من هزائم أمام جيوش المرابطين وجيوش عبد المؤمن بن علي ويوسف بن عبد المؤمن من الدوافع التي تجعلهم يستمرون في القيام بمحاولات يائسة في الأخذ بالثأر وانتهاز الفرص، من أجل ذلك عمد يعقوب المنصور سنة إحدى وتسعين وخمسمائة إلى القيام بحركة جهادية في الأندلس كان من نتائجها تحقيق النصر في معركة الأرك، وإذا كان المنصور قد استفاد من قوة المصامدة والمتطوعة من زناتة فقد استفاد كذلك من الهلالية والجشمية حيث عقد على قبائل العرب الهلالية لجرمون بن رياح وبرز من أمراء العرب أثناء تلك المعركة عامر الزعيم الذي لعب دورا خطيرا في ذلك النصر حيث كان من أهم رجالات المعركة وفرسانها الذين عملوا على حض الجند والمتطوعة على الثبات والصبر في مواجهة العدو وأظهرت الهلالية وغيرها من الثبات والنصح في مدافعة العدو ما أثلج صدر يعقوب المنصور وساعد على التعجيل بالنصر على تلكم القوات المسيحية.

ويمكن القول إن هذه المعركة كانت من أهم المعارك التي برهنت فيها القبائل العربية على قدرتها وصدق عزيمتها في الميدان مما رفع قدرها وأحل أمراءها وشيوخها المحل الأسنى وجعلها مستقبلا عمدة بعض الملوك واتخاذها عصبة وأنصارا كما منحها فرصة التدخل في شؤون الدولة.

وإذا كان يعقوب المنصور قد حقق النصر في موقعة الأرك فإن الناصر لدين الله قد حاول هو الآخر تحقيق نصر مماثل فقد عمد على حشد قواته من أجل تحقيق هذا الهدف، واستدعى جميع القوات من مختلف الأقطار المغربية للمشاركة في هذه المعركة بحيث ألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد. كما في الاستقصاء وأبي زرع، واجتمع في هذه المعركة المصامدة والعرب والأندلسيون بأعداد كبيرة إلا أن قيام الناصر بقتل قائد قلعة رياح بعد تسليمه الحصن للنصارى بعد يأسه من وصول الإمدادات وعزل القواد الأندلسيين المتبرمين من عمل الناصر كل ذلك سيحدث اضطرابا وانقساما في جيش الناصر. فعند اللقاء بالقوات المسيحية في منطقة العقاب المعروفة عند الاسبان بـ Las Navas de Tolosa تفككت تلك القوات وابتدأ ذلك بانسحاب الجيش الأندلسي من المعركة ثم تلته الفرق الأخرى وكانت الهزيمة المشهورة بهزيمة معركة العقاب والتي فقد فيها المسلمون أهم الأراضي والتي لم تكن فيها نجاة الناصر نفسه إلا على يد فارس عربي من الهلالية الذي قدم للخليفة فرسه قائلا اركب هذه الحرة فإنها لا ترضى بذل. والذي يهمنا من هذا أن عدم الانضباط والأحقاد في صفوف الموحدين كان من أسباب هذه الهزيمة كما نسجل مشاركة القبائل الهلالية والسليمية وغيرها في هذه المعركة وبكثافة كبيرة وكانت هذه الأحداث سنة 608هـ.

لم يمر على هذه المعركة المشؤومة إلا أقل من سنة قضاها الناصر بمراكش في حزن وأسى ويأس حتى توفي سنة 610هـ /1203م فكان في ذلك بداية تدهور الدولة الموحدية كما بدأت مظاهر الخلاف تظهر بين

أمراء الدولة وبدأت تظهر أولى مظاهر الخلاف على العرب الهلاليين على الدولة وبدأ يظهر ذلك بكل وضوح أيام العادل بالله الموحدي ولم يكن ذلك إلا محاولة من هؤلاء العرب لإظهار الشوكة والقوة والعودة إلى الفوضى والفتن التي اعتادوا عليها قديما ولم تكن إلا حركة يراد بها فرض الوجود إذ كانت ظروف الدولة السائرة نحو التدهور هي التي ساعدت على ظهور حركات الإخلاف والعصيان فعندما أراد العادل دخول مراكش الاستعانة بشيوخ قبائل عرب جشم وسفيان والخلط وهو بسلا لم تستجب له تلك القبائل وعلى العكس من ذلك فإن الخلط تحالفوا مع قبيلة هسكورة البربرية على مناوأة العادل بالله والعبث في منطقة الحوز ومراكش وكانت منطقة مراكش أكثر المناطق تضررا من جراء تلك الاضطرابات.

لقد وجد العادل بالله صعوبات جمة وهو في طريقه إلى مراكش نتيجة الغارات التي كانت تشنها تلك القبائل في المناطق التي كان يمر بها الركب السلطاني بل إن قوات هلال بن حميدان شيخ الخلط وأميرها وشيوخ هسكورة استطاعت قوتهما إلحاق الهزائم المتوالية بقوة الدولة التي كان يقودها كل من ابن برجان وإبراهيم بن اسمعيل وأدى ذلك إلى بداية سيئة في علاقة هؤلاء العرب مع الدولة وكان ذلك بداية الاستخفاف بقوتها وعامل تشجيع شق عصا الطاعة وبداية الضلوع في تدبير الدسائس وحبك المؤمرات.

ومنذ هذا التاريخ بدأ ملوك وأمراء الموحدين يعملون على استغلال هذه القبائل العربية في خلافاتهم ومن أجل تحقيق أغراضهم

حيث حالف بعض الملوك أو الأمراء بعض هذه القبائل في حين حالف آخرون قبائل أخرى وتجرأ عرب الخلط على الإعلان بخلع طاعة العادل فكان ذلك بداية اهتزاز ملك الموحدين إذا لم نقل بداية النهاية لهذه الدولة.

كان للوضعية التي أصبحت عليها الدولة ولاستمرار خلافات أمراء الموحدين أثر في تشجيع هذه القبائل على الاستمرار في الإخلاف والارتماء في حمأة الفوضى والانتزاء على الدولة فعندما قام الموحدون بخلع العادل والبيعة لأبي العلاء المأمون ثم نكثهم لهذه البيعة وصرفها إلى يحيى بن الناصر وهو طفل لا يتجاوز عمره العشر سنوات وهو أمر يدل على رغبة المتنفذين في الدولة على الاستبداد بالحكم في دولة طفل دون بلوغ. كل ذلك دفع بقبيلة الخلط العربية وهسكورة البربرية إلى رفض تلك البيعة والتشبث ببيعة المأمون وإلحاق الهزيمة بجيش يحيى بن الناصر وبذلك دب الخلاف في دواليب الدولة وفقدت الثقة في أكبر المسؤولين فيها حتى إن يحيى بن الناصر أمر بقتل أبي يزيد بن برجان بجريرة تآمره مع الخلط وهسكورة أو كما نسجت له التهمة بذلك.

ويمكن القول إن أمير الخلط وشيخها هلال بن حميدن قد أصبح الرجل الأول في الدولة بعد الملك إذ كان هو ساعد المأمون على العودة إلى الحكم والدخول إلى مراكش مصحوبا بقوات قشتالية ومما يدل على رفعة هذه القبيلة ونفوذ شيخها في هذه الفترة أن المأمون عندما ألقى القبض على قاضي الجماعة بمراكش أبي محمد عبد الحق (دفعه إلى هلال بن حميدان أمير الخلط فحبسه حتى افتدى نفسه بستة آلاف دينار) ومن

المعروف أن المأمون كان هو أول من عمل على إسقاط دعوة المهدي بن تومرت وتتبع أنصارها بحجة إماتة البدعة وإحياء السنة.

وإذا كان المأمون قد تمكن من طرد يحيى بن الناصر والاستيلاء على مراكش فإن ذلك لم يدم طويلا إذ سرعان ما واجهته ثورة أخيه بسبتة وهو أبي عمران موسى بن المنصور فاضطر إلى ترك مراكش لمواجهة أخيه والقضاء على حركته إلا أن ذلك أتاح الفرصة لعودة يحيى بن الناصر معززا بعرب سفيان وعلى رأسهم شيخهم جرمون بن عيسى السفياني وشيخ قبيلة هنتاتة البربرية أبو سعيد وعاث هؤلاء في مراكش سلبا ونهبا وهدموا كنيسة للنصارى وسلبوا اليهود أموالهم. وعاد يحيى بن الناصر إلى الاعتصام بالجبل لما أحس بعودة المأمون. إلا أن المأمون لم يسعفه الحظ بالوصول إلى مراكش إذا وافته المنية وهو في الطريق إليها وكانت هذه الأحداث من أحداث سنة 629هـ.

وإذا كان المأمون لم يستمر في الملك إلا مدة ثلاث سنوات وتمخض عن ذلك أحداث جسام ذاق الناس مرارة أهوالها، فإن هذا الصراع بين أبناء المنصور وأمراء الموحدين قد شل أركان الدولة وهد كيانها ومزق شملها. كما يفيد أن أولئك العرب كانوا غير موحدين في موقفهم بل منقسمين على أنفسهم، فقبيلة سفيان كانت تؤيد يحيى بن الناصر بينما كانت قبيلة الخلط تؤيد المأمون. وكان الخلط في حلف مع هسكورة البربرية بينما كانت سفيان في حلف مع هنتاتة البربرية وهذا يسقط الدعوة القائلة إن العرب وحدهم كانوا مثيري الفتن والاضطرابات في الدولة وأنهم كانوا يتحركون استجابة لنعرات قبلية

وعصبيات عنصرية، وإنما كان المحرك لهم في الواقع هو البحث عن مصلحة موهومة في هذا الجانب أو ذاك وبريق من سراب حظوة عند هذا الملك أو عند ذاك الأمير وطموح لبلوغ مراكز القوة في الدولة.

وعند مبايعة الرشيد من قبل الموحدين ومشاركة البربر والعرب والافرنج عسكر الدولة في ذلك كان لهؤلاء العرب قوة لا يستهان بها، فقد قدر عدد فرسان الخلط وحدهم على عهد مسعود بن حميدان شيخهم بما لا يقل عن عشرة آلاف فارس، وإن كان هذا الرقم مبالغ فيه إلا أنه يدل على مدى القوة المادية والمعنوية التي بلغتها هذه القبيلة العربية في رأي الآخرين، كما يدل على أن قوة الدولة أضحت عمدتها قوة القبائل المؤيدة لها.

بل إن ابن خلدون وابن زرع يؤكدان على أن الخلط كانوا يومئذ اثنى عشرة ألف فارس سوى الأتباع والحشود. وعلى أن مسعود بن حميدان قد مرض في الطاعة وتثاقل علي في الوفادة إلى الحضرة بمراكش.

ويبدو أن قبيلة هسكورة استمرت في مناوأة ملوك الموحدين الذين لم يرضونها بالاتحاف والاختصاص وهو ما دفع شيخها عمر ابن أوقاريط على إغراء شيخ الخلط بالتلكؤ في إظهار الطاعة للرشيد وعدم المبادرة بمبايعته والإسراع بالوفادة عليه. كما يظهر أن الرشيد كان لا يريد الاستمرار في سياسة سابقة بالاعتماد على تأييد قبائل تكون لها على الدولة منة التأييد والنصرة، ويسعى إلى إعادة الاعتبار للحكم المركزي ولسيادة الحاكم. ولم يكن بضعيف الكيد في هذا الشأن حيث أظهر تجاهلا وتغافلا عن تلك المواقف التي بدت من قبل بعض القبائل

المخالفة والعمل على تحيين الفرصة للبطش بزعمائها (فقد عمد إلى استعمال الحيلة في القضاء عليه حيث صرف الجند إلى بعض الجهات ليطمئن مسعود ثم استدعاه للقدوم عليه فلما دخل مسعود القصر أقفلت الأبواب وقتل هو وعشرون من قومه). ولم يكن مسعود هذا إلا شيخ قبيلة عرب الخلط التي أصبحت مناوأة للخليفة الجديد.

لم تكن عرب الخلط مطمئنة للرشيد منذ البداية فعندما قدم مسعود بن حميدان على الرشيد لم يصطحب معه كل الزعامات في الخلط على سبيل الاحتياط لما قد يقع من غدر. ومن هنا فإن حيلة الرشيد لم تمكنه من التخلص من كل تلك الرؤوس الخطيرة التي كانت تبيت ما يكره وتطوي كشحا على فساد نية ولذلك نجد الخلط بمجرد ما أن علمت بذلك الحدث الجلل حتى أسرعت إلى تعيين يحيى بن هلال بن حميدان شيخا لها وجددت حلفها القديم مع قبيلة هسكورة البربرية وأعلن عمر ابن أوقاريط الهسكوري معاضدته لموقف عرب الخلط من الرشيد، وبذلك صرفت كل من الخلط وهسكورة بيعتها إلى يحيى بن الناصر طلبتهما القديم. واستطاع هذا الحلف فرض حصار على مراكش وإلحاق الهزيمة بجيش الرشيد وعندما تدخلت القوات القشتالية المسيحية لفك الحصار تمكن فرسان الخلط من دحرها والقضاء عليها قضاءا مبرما. وكان ذلك داعيا للرشيد في أن يترك مراكش متخليا عنها ليحيى بن الناصر ويؤوم وجهه نحو الجبل لينتهي به المطاف إلى سجلماسة، ولم يكن ذلك ليقع لولا تحالف عرب الخلط وبرابرة هسكورة من أجل مناصرة يحيى بن الناصر ومناوأة الرشيد وكل هذه الحوادث تعود إلى سنة 632هـ.

نكبة الخلط:

كان الرشيد قد ترك مراكش وتولى في وجهته نحو سجلماسة غير أنه سرعان ما تمكن استعادة أنفاسه وتنظيم صفوفه واهتبال فرصة الخلاف الذي دب بين قواد وشيوخ دولة يحيى بن الناصر وتذمر السكان من سيرته ومما حل بهم من نكبات على يد أنصاره حيث تضرر أهل مراكش من جراء ذلك الشيء الكثير فعمل الرشيد على إعادة الكرة على مراكش ومحاصرتها، وكتب إلى أنصاره من عرب سفيان أعداء الخلط فعمل جرمون بن عيسى على الدفع بجموعه نحو مراكش لملقاة الرشيد ومعاضدته وعبرت تلك القبائل وادي أم الربيع واستطاعت دخول مراكش مع الرشيد ولم تفد يحيى بن الناصر هذه المرة جموع الخلط ولا قضيض هسكورة واضطر إلى ترك الحضرة والالتحاق بالجبل وفرت عنه جموع الخلط ناكثة بيعتها له وشجعها على ذلك شيخ قبيلة هسكورة الذي أوحى إلى شيخ الخلط بصرف تلك البيعة إلى ابن هود الذي كان قد استولى على جزء كبير من الأندلس.

كانت قبيلة الخلط تحالفها وتعاضدها قبيلة هسكورة قد بعثت بوفدها إلى ابن هود، إلا أن تلك الوفادة لم تلق نجاحا ولم يستطع ابن هود الاستجابة لمطالب الخلط وهسكورة، لأنه هو الآخر كان يتخبط في مشاكل جمة مع منافسه ابن الأحمر. بل أن اشبيلية خلعت طاعته وأرسلت بيعتها إلى الرشيد وبعثت بابن أوقاريط موقورا في الحديد هدية منها إليه.

أما الخلط فإنها لما ضاقت بها السبل وسدت عليها المسالك ورأت أن لا مندوحة لها من الاستسلام للأمر الواقع أظهرت الطاعة ووقعت فيما كانت منه حاذرة فقد ألزمها الرشيد أن تأتيه بالبعث بشيوخها إلى الحضرة فنفذ فيهم حكم القدر حيث ألقى القبض على شيوخها وأمر بقتلهم وبعث بجيشه لاستباحة حللها وأحيائها. وبذلك أخضدت شوكة الخلط التي طالما عانى من حدتها جل أمراء الموحدين، كل ذلك تم بعد أن اغتيل يحيى بن الناصر من قبل بني معقل في ناحية تازا وبعث برأسه إلى الرشيد وهو بفاس. وقد جرت هذه الأحداث في الفترة ما بين سنتي 634هـ/ 635م.

حركة السعيد إلى تلمسان:

بالرغم مما حدث لعرب الخلط في زمن الرشيد من نكبات فإن أبا الحسن السعيد عمل على تقريب شيوخ العرب واعتمد على الكثير منهم في الحكم وخاصة قبائل جشم التي كانت لا تزال بالرغم مما حل بها من نكبات إذ كان شيخ سفيان كانون بن جرمون يمثل أهم شخصية في بلاط السعيد. وقد عمل هذا الأخير على استخدام جموع العرب في مناهضة أعداء الدولة ومقاومتهم وخاصة من قبائل بني مرين وبني عبد الواد الذين ظهروا في الساحة السياسية مناصرين بني حفص في تونس وطامعين في اقتطاع أملاك الدولة ومغيرين على الكثير من أرجائها.

لم يستمر هذا الوفاق طويلا بين العرب والسعيد فعندما دخل السعيد في صراع مباشر مع بني مرين الذين أصبح أبو بكر بن عبد الحق يقود حركتهم في المناطق الشرقية والشمالية عملت قبيلة سفيان على خيانة السعيد أثناء مواجهته مع بني مرين، وبدلا من مناصرتها لحليفها

وولي نعمتها فإنها تخلت عنه في أحرج الظروف واضطر السعيد إلى التخلي عن مواجهة بني مرين والعمل على قمع حركة العصيان التي أصبح كانون بن جرمون يقوم بها حيث استولى على مدينة أزمور مستبدا بها. وقد تمكن السعيد من القضاء على تلك الحركة وإلحاق الهزيمة بسفيان، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على جل رؤوس الفتنة فيها. فقد استطاع كانون بن جرمون هو والكثير من قومه النجاة وإظهار الإخلاف وقلب ظهر المجن للموحدين وانضم كانون بفله إلى بني مرين.

عرفت هذه الفترة صراعا محتدما بين الموحدين وبني مرين المؤيدين لبني حفص واستطاع السعيد إلحاق الهزيمة بهم في سايس حيث أرغم المرينيين على التخلي عن مكناسة الزيتون وعن تازا وذلك سنة 645هـ وقد ساعد ذلك على تقديم الأمير أبي بكر المريني البيعة للسعيد أو التظاهر بذلك كما أظهر تعهدا بمحاربة يغمراس أمير بني عبد الواد المستبد بتلمسان ونواحيها إلا أن السعيد لم يكن مطمئنا لهؤلاء المرنيين ففضل القيام بمحاصرة تلمسان بنفسه.

يبدو أن السعيد قد سلك مسلك التسامح مع قبيلة سفيان التي عانى من تمردها السابق فعندما أعلنت عودتها إلى الطاعة عفى عنها بعفوه عن بني مرين واستصحب كلا من الخلط وبني مرين إلى تلمسان في حركته نحوها إلا أن خلافات الخلط مع سفيان في جيشه كانت من عوامل الاضطراب في صفوف ذلك الجيش كما يظهر من بعض إفادات المتتبعين لحركته تلك بالرغم أن سبب هزيمة الموحدين المباشر يعود إلى

قيام بني عبد الواد بقتل السعيد أثناء قيامه بصورة شبه منفردة بالاستطلاع على قواتهم.

وهكذا نجد أن الدولة لم تكن مستغنية عن هؤلاء العرب خلال حروبها بالرغم من أنهم كانوا كثيرا ما يظهرون تذبذبا في مواقفهم تجاهها وكانوا ينظرون إليها على أنها تفضل أبناء جلدتها من البربر عليهم في الفيء والرتب والمغنم والحظوة بينما تقع الكلف والنجدة في الحروب على عاتقهم وهذه الأحداث هي التي أسفرت عن قتل السعيد أو اغتياله وعن هزيمة الموحدين والتي كلها تعود إلى سنة 646هـ.

عندما وصل خبر مقتل السعيد إلى الحضرة أسرع الموحدون في مراكش إلى تقديم بيعتهم إلى عمر المرتضى الذي كان أثناء حركة السعيد نحو تلمسان متحكما في قصبة الرباط وكان ذلك من حكمة شيوخ الموحدين وإلا فإن هزيمة السعيد كانت أحدثت شرخا كبيرا وصدعا هائلا في هيكل دولة الموحدين وكان يصعب تلافي عواقب ذلك لو لم يعجل بسد تلك الثلمة وترميم تلك الثغرة قبل فوات الآوان.

كان عمر المرتضى قد تولى العرش وكانت شيوخ الخلط والعاصم وبنو جابر والعاصم وسفيان وغير هؤلاء من قبائل العرب قد تقدمت ببيعتها إليه بعد أن قدمتها من قبل شيوخ الموحدين وقد عمل عمر المرتضى على القيام بتعيين شيوخ القبائل أو تجديد تعيينهم فعين على قبيلة سفيان كبيرهم يعقوب بن جرمون كما عين يعقوب بن كانون شيخا على عرب بني جابر وقد فعل مثل ذلك مع القبائل الأخرى وهذا يدل على بداية تدخل الدولة في تعينات شيوخ القبائل بصورة مباشرة أو شبه

مباشرة ضمانا لطاعتها بينما كانت القبائل من قبل تختار شيوخها بنفسها من غير تدخل من الدولة.

في سنة 649هـ حاول المرتضى الاستفادة من الخلاف الذي وقع بين بني عبد الحق وبين بعض إخوانهم المنشقين عنهم إذ كانت مرين قد عادت إلى مناوأة الموحدين فتحرك لضرب بني مرين قصد القضاء على حركتهم واصطحب القبائل معه إلا أن شيخ سفيان يعقوب بن جرمون نكص على عاقبه وعمل على إشاعة الفوضى والاضطراب في صفوف الجيش مشيعا لإشاعات أن الصلح قد وقع بين الفئتين ولم تكن تلك إلا فرية عمل على ترويجها ذلك الشيخ وأعقب ذلك بانسحابه هو وقومه ففت ذلك في عضد كبار الجيش وقادته وأحدث اضطرابا انتهى بانسحاب ذلك الجيش من الميدان بدون حرب أو مواجهة فكان في ذلك نصر معنوي لبني مرين صنعته فرية شيخ سفيان وجرت هزيمة للموحدين بدون قتال ولا نزال.

ويبدو لي أن موقف قبيلة سفيان ما كان إلا إعادة لسيرتها الأولى مع السعيد فهزيمتها أمام هذا الأخير مع عفوه عنها جعلها تطوى كشحا سيئا للموحدين وتنتظر فرصة الأخذ بالثأر في الوقت المناسب.

عمل المرتضى على ترميم قواته من أجل استعادة فاس من يد أعدائه بني مرين وعزم على مؤاخذة أولئك المتسببن في إلحاق الهزيمة بجيشه أمام بني مرين وخاصة شيوخ سفيان وبني جابر واستطاع تأليف جيش جديد قوامه ثمانين ألفا من الجند والمصامدة والعرب والأندلس. إلا أن هذا الجيش الضخم لم يكن ليغني عنه شيئا لأنه جيش أولف من

عناصر متناقضة متباينة وروح معنوية منهارة مع اختلال في التنظيم وسوء تدبير.

لم تصل تلك الجيوش الجرارة إلى مشارف مدينة فاس حتى دب في صفوفها الخلاف وانهارت معنوياتها عندما رأت تلك الجموع من بني مرين عند جبل بهلول بالقرب من المدينة ودخلها الفزع ولوت أعنتها نحو مراكش راضية من الغنيمة بالإياب، وهكذا خسر الموحدون المعركة الثانية بدون قتال. وعلى أم الربيع جرت معركة أخرى خسر فيها الموحدون الرهان ثانية فكانت تلك المعركة ثالثة الأثافي على بني عبد المؤمن حيث وجد عرب بني جابر فرصة انتهازوها في حق الموحدين حيث خذلوهم وجروا عليهم النكبات.

أصبح الموحدون يعانون مشاكل كبيرة ويواجهون الثورات في مختلف الأقاليم فقيام الحفصيين بإفرقية وبنو عبد الواد بتلمسان، واستبداد بني مرين بمناطق واسعة في الشرق والشمال وظهور علي يدر في سوس وتحالفه مع عرب الشبانات وذوي حسان جعل الموحدين لا يتعدى نفوذهم مراكش ونواحيها بل أصبحت دولتهم مجرد إمارة محاصرة من الشمال ببني مرين ومن الجنوب بإمارة علي بن يدر ومن الشرق ببني عبد الواد أمراء تلمسان.

لم يتمكن الموحدون من القضاء على الثورة القائمة عليهم في الجنوب والتي يقودها علي بن يدر بل استمرت إلى سنة 660هـ ويرى ابن عذاري أن قوات الموحدين حاصرت حصن تيويوين معتصم بن يدر وأرغمته على الاستسلام وطلب الأمان وقوبل منه ذلك بعدما تألبت

عليه قبائل جزولة ولمطة وزناكة وبالرغم مما وقع فإن ابن يدر عاد إلى الظهور بعد استيلاء المرينيين على مراكش واستعان ببني معقل عرب سوس، وأنكب جزولة إلا أن بني معقل قاموا بتصفيته عندما حاول الاستبداد بهم فزحفوا إليه بتارودانت وقتلوه سنة 668هـ وفي هذا الظرف كان بنو مرين قد بسطوا نفوذهم على مراكش أو نواحيها كتامسنا.

ويبدو أن الموحدين كانت قد انهارت معنوياتهم ولعبت الأحقاد والفرقة وشدة المنافسة فيما بينهم دورا مهما في انهيارهم وأصبحت تشكل معولا حقيقيا في تذمير صرح دولتهم وإلا فكيف نفسر التجاء أبي العلاء إدريس إلى بني مرين وتخليه عن مناصرة ابن عمه عمر المرتضى لولا طمعه في الارتقاء إلى أريكة الحكم، وكيف اطمأنت نفسه إلى التعامل مع أولئك الذين طمعوا في ملك الموحدين وعملوا على تقويضه ومحالفة أعدائهم من بني حفص الذين إشرأبت أعناقهم إلى محو دعوتهم والحلول محلهم.

لم يتردد يعقوب بن عبد الحق المريني في تقديم المساعدة لأبي العلاء المكنى بأبي دبوس حيث ساعده وأمده بعدة آلاف من بني مرين وعمل على تحريض عرب الخلط على النهوض معه حيث عمل علي بن أبي على الخلطي على استنفار قبيلته وجل قبيلة عرب بني جشيم على مظاهرة أبي دبوس ضد المرتضى وانضم إلى ذلك علوش بن كانون كبير سفيان وسايرهم في ذلك بنو جابر من عرب تادلا وتحول جزء كبير من العرب الذين كانوا في خدمة عمر المرتضى لصالح أبي دبوس.

كان أول نصر حققه أبو دبوس هو استيلاؤه على سلا ونواحيها كما نجح في إغراء من كان من العرب مع المرتضى في الانضمام إليه

والتخلي عن مناصرة المرتضى. ويعود ذلك إلى أن بني مرين أصبحوا يبذلون الجهد في سبيل تحقيق هذه الغاية وهكذا اجتمعت الخلط وعرب سفيان وبنو جابر ومعهم قبيلة هسكورة البربرية على محاصرة مراكش وإرغام عمر المرتضى على التخلي عنها لصالح أبي دبوس والالتجاء إلى أزمور ونزوله على صهره أبي عطوش الذي غدر به وعمل إتلاف مهجته بقتله تقربا لأعدائه إلا أن مراكش لم تستسلم لأبي دبوس إلا بعد مقاومة عنية ولم تخلص له إلا سنة 665هـ.

المرينيون ودور العرب في دولتهم

كانت قبيلة عرب رياح في هذه الفترة منتشرة بخيلها وخيامها في منطقة أزغار وكانت هذه القبيلة من أكثر القبائل العربية بالمغرب عددا وخيلا وفرسانا وكانت لا تزال قريبة عهد بالبداوة والنجعة ومحتفظة بالكثير من شيم النخوة وفضائل الشجاعة وعرفت بمضايقتها لجيرانها من بدو وحضرة وبأخذها الإتاوات من غيرها وخاصة من قرى أزغار ومدنه كقصر كتامة. وعندما ظهر المرينيون على مسرح الأحداث كانت قبيلة رياح مظاهرة للموحدين ورافضة لبني مرين، ودخلت في مؤامرة ضدهم فعندما انفصل عن بني مرين أبناء عمومتهم من بني عسكر محالفين للموحدين كانت رياح في ذلك الحلف وجرت بينها وبين بني مرين معارك على واد سبو وبالقرب منه أسفرت تلك المعارك عن قتل الأمير عبد الحق المريني وابنه الأكبر الأمير إدريس واختلت صفوف بني مرين إلا أن الاستمرار في الصمود لقبائل رياح جعلها تربح الرهان وتنتصر على أعدائها.

لم يعد أمام قبائل رياح بعد انتصار بني مرين عليهم إلا أن تلوذ بالهضاب وتعتصم بالمرتفعات إلا أن استمرار المرنيين في مطاردتها وتضيق الخناق عليها جعلها تذعن للأمر الواقع وتلحق بالقبائل الغارمة تدفع الجزية وهي كارهة ولم تعد لها تلك العزة والمنعة التي كانت عليها وكان خضوعها لمرين على يد عثمان بن عبد الحق.

أما بنو جابر من العرب الجشمية فإنهم كانوا إلى هذا الحين مهيمنين على بلاد تادلا مظاهرين الموحدين وغير آبهين ببني مرين



وعندما سيطر المرينيون على بلاد تامسنا رأى أبو بكر كبير بني مرين وأميرها أن لا ثبات لدولته إلا بالاستيلاء على بلاد تادلا والقضاء على بني جابر وإخضاعها، ويظهر أن مقاومة بني جابر كانت قوية خاصة وأنها كثيرا ما كانت تلجأ إلى المرتفعات عندما تحاصر معتصمة بسفوح ومرتفعات الأطلس وبالرغم من أن المرينيين تمكنوا في نهاية الأمر من إجبار هذه القبيلة على الخضوع لهم فإنهم دفعوا ثمنا باهضا في حروبهم معها حيث قتل الكثير منهم ومن جملتهم الأمير علي بن عثمان بن عبد الحق ومنذ هذا التاريخ وبنو جابر يدخلون مع مجاوريهم من البربر في حلف كلما حزب أمر ويشاركونهم النجعة والإقامة حتى اختلطت أنسابهم مع أولئك البربر أو كادت.

كان المرينيون في هذا الحين لا يزالون على خلاف فيما بينهم وإلى عهد يعقوب بن عبد الحق الذي تولى زعامتهم ويعود ذلك التنافس إلى صراعهم على منصب الرئاسة وأريكة الملك ولم يكونوا قد أصبحوا بعيدين عن روح البداوة وخشونتها والنخوة وسجاياها مثلهم مثل القبائل العربية فعندما عزم يعقوب بن عبد الحق على جعل ابنه أبي مالك وليا للعهد من بعده أبت ذلك بعض فصائل بني مرين وانقسمت مرين على نفسها ورفض بنو إدريس وبنو رحو وبنو عياد تلك التولية وشغبوا على الأمير يعقوب بن عبد الحق لأنهم يرون أنهم أولى بتلك الولاية من غيرهم فاضطر يعقوب إلى إرسال جيش تحت قيادة ابنه الأمير يوسف تسانده قوة من فرسان عرب سفيان بقيادة شيخهم مسعود بن كانون من أجل القضاء على تلك الحركة وتم ليعقوب ما أراد وحظيت سفيان

من جديد برضى المرينيين وأضحت عمدة حكمهم ونالت الكثير من مودتهم وامتيازاتهم مما رفع قدرها وسما بها إلى أعلى المناصب وترجع هذه الأحداث إلى سنة 669هـ.

يبدو أن بني مرين قد أصبحوا في هذه الفترة معتمدين في الكثير من شؤونهم العسكرية وحركاتهم على القبائل الهلالية وغيرها من القبائل العربية، فعندما أراد يعقوب ابن عبد الحق غزو بني عبد الواد واسترجاع ما هيمنوا عليه من شرق البلاد توجه في جيش لجب إلى تلك المناطق وانطلاقا من مدينة فاس إلى ناحية ملوية في وقت كانت وفود القبائل العربية قد توافدت عليه مشاركة في تلك الحملة فعرب سفيان والخلط وبن جابر والعاصم ورياح وبنو معقل من الشبانات وذوي حسان والأثبج كانت لها مشاركة فعالة في ذلك الصراع الذي خاضه يعقوب بن عبد الحق واستطاع بتلك القوات القضاء على قوة يغمراسن أمير بني عبد الواد ويلحق الهزيمة به ويتقدم إلى مدينة تلمسان لمحاصرتها. إلا أن بني عبد الواد وإن كانوا قد انهزموا أمام المرينيين في معارك الميدان إلا أنهم نجحوا في الصمود والاحتفاظ بعاصمتهم بالرغم من الحصار الطويل الذي فرضه المرينيون عليهم وتعود هذه الأحداث إلى سنة 670هـ.

ويلاحظ أن يعقوب بن عبد الحق واجه ثورات قبائل المعقل من عرب سوس حيث أرسل ابنه أبا مالك عبد الواحد لقمع حركة العصيان التي قام بها عرب ذوي حسان بل خرج يعقوب بن عبد الحق بنفسه لإخضاع تلك القبائل على واد درعة. واستطاع السيطرة على تلك

الحصون التي كانت تهيمن عليها وتتحصن بها، وقد جرت هذه الأحداث فيما بين 668-983هـ.

ويظهر أن بني مرين قد أصبحوا يعتمدون على قبائل زناتية وعربية لمدة غير قصيرة فعداؤهم للمصامدة وضعف ثقتهم بالصنهاجيين جعلهم أكثر التحاما مع الهلالية والجشمية حيث عملوا على تقريبهم واجتبائهم فجعلوا الاستشارة لهم وصاهروهم بالأبناء وأجلسوهم بدار الإمارة فرسخت لهؤلاء العرب في مملكة بني مرين الأقدام وسموا إلى أعلى المناصب والرتب.

في سنة 672هـ نهض يعقوب بن عبد الحق إلى الجنوب الشرقي من البلاد الذي كان لا يزال خاضعا لبني عبد الواد فعمل على استرداد سجلماسة من يدهم حيث أخذ في القيام بحملة جمع فيها بين فرسان بني مرين والعرب وبقية قبائل البربر واكتسح تلك المناطق إلا أن مدينة سجلماسة لم يستسلم المدافعون عنها من بني عبد الواد وعرب المنبات المؤيدين لهم إلى سنة 673هـ وبذلك تم لبني مرين بسط نفوذهم على مناطق فقدها الموحدون من قبل لصالح بني عبد الواد لمدة غير قصيرة.

كان يعقوب بن عبد الحق قد استصحب معه قبائل زناتة والعرب وغيرهما وعزم على غزو الأندلس لرد عاديات العدو وإلحاق الهزيمة بالفونس وانقاذ كرسي بني الأحمر من هيمنة القشتاليين كما فعل من قبل إلا أن الاضطرابات التي أوقد نارها مسعود بن كانون السفياني في حوز مراكش بالإضافة إلى قيام قبائل جشم بالعيث في منطقة تامسنا كل ذلك شغله عن تنفيذ مشروعه في الأندلس وتقديمه لعملية قمع تلك

الثورات والاضطرابات في المناطق المذكورة. وبالرغم من أن مسعود بن كانون قد نجح في الإفلات والالتحاق بسفوح الأطلس ومرتفعاته والدخول في حلف مع قبيلة سكسوة المصمودية ضد المرنيين فإن يعقوب بن عبد الحق قد تمكن في النهاية من إعادة الأمن والاستقرار إلى منطقة مراكش وغيرها والقضاء على حركة قبيلة سفيان ومن حالفها كالحارث وجشم من العرب.

المرينيون والأندلس:

كان المرينيون على كبير اهتمام بما يجري في االأندلس التي أصبحت معرضة باستمرار لهجمات العدو المتكررة وأصبح أمراء الأندلس وملوكها متنافسين على السلطة. وفي خلاف دائم من أجل ذلك بينما كان القشتاليون مستمرين في عملية اقتطاع يومي لأراضي الأندلس ونتيجة للتنافس الحاصل بين أمراء الأندلس على عهد بني الأحمر فضل بعض هؤلاء الأمراء محالفة العدو وتقديم الجزية له وتلك معرة عرب الأندلس.

عمل يعقوب بن عبد الحق على القيام بتقديم العون والمساعدة للأندلسيين في ظروف مختلفة وفي عام ثلاث وخمسين وستمائة قام بإرسال وحدات من جيشه إلى الأندلس ويعتبر هذا الجواز هو الجواز الرابع لبني مرين إلى الأندلس وقد شاركت في هذا الجواز عناصر مختلفة فقد كانت هناك عناصر من بني مرين ومن الغزْ وأعداد كبيرة من القبائل الهلالية والسليمية والجشمية كعرب الخلط وبني جابر والأثبج والعاصم وكانت القيادة لمنصور بن عبد الواحد حفيد يعقوب واستطاعت تلك

القوات محاصرة اشبيلية وانتساف ربوعها واضطرت القشتاليين إلى الاعتصام بأسوارها وترك فحصها تعيث فيه القوات المرينية وكان لعرب الخلط وغيرهم دور كبير في إلحاق الهزائم المتوالية بقوات القشتاليين في تلك الربوع فيوسف بن قيطون كبير بني جابر أظهر قدرة كبيرة في مناجزة العدو وأثخن في قواته أثناء غزوه لقرمونة ومنطقة الواد الكبير (راجع ابن أبي زرع ص 233 الأنيس المطرب).

وعندما قام يعقوب بن عبد الحق بشن حملته الموفقة على مناطق واسعة من وسط وغرب الأندلس مثل منطقة شريش واستجة وقرمونة وبسائط اشبيلية أظهرت فرسان عرب العاصم وغيرهم صمودا وصدق نية في القتال وبرز من شيوخها عياد بن أبي عياد العاصمي الذي أظهر حنكة ومهارة في مغالبة العدو وكذا بقية المجاهدين من عرب قبائل جشم من أمثال مهلهل بن يحيى الخلطي صهر السلطان وهذا يظهر لنا الدور الذي لعبه هؤلاء العرب من الهلالية وغيرهم في سبيل محاولة إنقاذ الأندلس وعلى إيجابيته في كثير من الأحيان وعن عدم إستغناء الدولة عنهم فيما يلم بساحتها من جسام الأحداث وخطيرها. (راجع ابن أبي زرع).

ويلاحظ أن الدولة المرينية استمرت في استخدام هؤلاء العرب من الهلالية خارج البلاد لأغراض عسكرية وجهادية لحماية الثغور الأندلسية وخاصة ما كان منها تحت نفوذها في تلك المناطق ففي زمن يوسف بن يعقوب جعلت قوات مرينية تحت قيادة أبي الحسن علي بن يوسف لحماية تلك الثغور وكانت تلك القوات مؤلفة من عناصر زناتية

وعناصر عربية هلالية وسليمية وجشمية لمدافعة العدو وصد هجوماته على الثغور وكان ذلك سنة 685هـ.

ويبدو أن السلطان يوسف كان قد أدرك أن استخدام هؤلاء العرب في أغراض دفاعية خارج البلاد مما يشغلهم ويصرفهم عن الكثير من عاداتهم السيئة في إثارة الاضطرابات وإشعال نار الفتن التي استحكمت فيهم منذ زمن بعيد.

اضطرابات القبائل والملوك

كان بنو معقل الذين الجأهم يعقوب المنصور إلى الصحراء وطردهم من سوس الغنية قد عادوا إلى تشغيبهم في تلك النواحي بعد وفاته وأصبحت مناطق الجنوب مهددة باستمرار بتحركاتهم ومهاجماته لنواحي درعة وإزعاج سكانها وفرضهم الإتاوات عليهم وسيطرتهم على طرق التجارة ومصادرة القوافل التجارية والإستيلاء على كل ما وصلت إليه أيديهم مالا كان أو سائمة وكثرت بهم الشكايات حتى اضطر السلطان إلى الخروج بنفسه من الحضرة بمراكش إلى تلك النواحي من أجل القضاء على تلك الاضطرابات التي قامت بها هذه القبائل المعقلية في البلاد.

وإذا كان السلطان قد أفلح في القضاء على تلك الفوضى التي أثارها هؤلاء المعقلية في تلك النواحي والبعث برؤوس الكثير منهم إلى المدن لتعلق على أسوارها فإن السلطان يوسف لم يتمكن من القضاء على جلهم فقد نجح جزء كبير منهم في العودة إلى الصحراء والإمعان في القفر والإختفاء في تلك الدروب الصحرواية الغامضة وهذا خلاف ما

سعى إليه الموحدون من قبل والذين عملوا على منع تلك القبائل من العودة إلى القفر والانتجاع فيه ومحاولة عزلهم عنه حتى يمكن مراقبتهم والتحكم فيهم وهذا ما لم يدركه المرينيون إدراك الموحدين له ولم يكن ذلك إلا من سوء التقدير وسذاجة التدبير لم تدرك آثار عواقبه إلا بعد حين.

وفي سنة 692هـ قام السلطان يوسف بن يعقوب لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الجشمي بمحاصرة الطريق التي كانت قد احتلت من قبل القشتالين بمساعدة من ابن الأحمر فنازلها إلا أنها امتنعت عنه، وهذا يفيدنا بأن بعض هؤلاء الهلالية بلغوا المناصب العليا في الدولة على عهد يوسف بن يعقوب (انظر الاستقصاء الجزء 3 الدولة المرينية ص 7).

وعندما عقد السلطان يعقوب الصلح مع الفشتالين احتفظ بحصن ذكوان بقرب مالقة والجزيرة الخضراء وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة وأنزله باسطبونة.

ولما قام يوسف بن يعقوب يحاصر بني عبد الواد في تلمسان كانت القبائل الهلالية والجشمية بركابه مع بقية الجيش والقبائل الأخرى وذلك سنة 698هـ.

في سنة 707 كان أمر الملك قد آل إلى السلطان أبي ثابت حفيد السلطان يوسف وكانت أحوال تامسنا قد أصبحت متردية وعادت الهلالية إلى سابق عهدها في العيث واعتراض القوافل وقطع السبيل شجعها على ذلك ضعف السلطة المركزية وانشغال الملوك والأمراء عن

ضبط شؤون البلاد. ولا توجد تفاصيل كافية عن دوافع تلك القبائل بالعودة إلى ظاهرة التشغيب إلا ما كان من قيام هؤلاء بتوجيه اللوم والتهم إلى شيوخهم فعندما توجه السلطان أبي ثابت إلى تامسنا تلقى شكايات مختلفة من قبل أبناء تلك القبائل عن الحيف وسياسة الجور التي كان يمارسها ضدهم أولئك الأشياخ إلا أن السلطان لم يلتفت إلى ذلك قدر التفاته إلى أولئك الذين ثبت أنهم من أهل الحرابة وقطع السبيل فقطع رؤوس بعضهم وسجن وغرم الكثير منهم وزينت أسوار أنفى بمجموعة من رؤوس مثيري الفتن.

لم يكن شيوخ تلك القبائل راضين عما فعل بإخوانهم ولم يكن أبو ثابت مطمئنا إلى سيرتهم وسلوكهم وقد بدا ذلك واضحا عندما دعاهم إلى مصاحبة الركب السلطاني من تامسنا إلى أنفى حيث أظهروا تلكؤا ورغبة في العودة إلى حللهم بتامسنا إلا أن أبا ثابت اعتبر ذلك منهم ابية ونفرة استوجبت عقابا فعمل على البطش بكل أولئك الذين وصفوا بكونهم من فتاك القوم حيث قطع حوالي ثلاثين رأسا منهم وعلقها على أسوار مدينتي الرباط وسلا هدية إلى سكانها الذين طالما عانوا الكثير من عيث ذوي هذه الرؤوس وبطشها، فعادت الطمأنينة إلى النفوس، والانتعاش والحياة إلى الأسواق ومدنها.

إلا أن التاريخ لم يفصح لنا عن أسماء وأنساب أولئك الذين انكبوا أكانوا من قبيلة واحدة أم من عدة قبائل إلا أنه من المعلوم أن القبائل التي صاحبت الركب السلطاني كانت من الخلط وسفيان وهم آنذاك من سكان تامسنا كما كان هناك بنو جابر سكان تادلا وورديغة.

يبدو أن ظاهرة الاضطرابات في هذه الفترة لم تكن مقتصرة على منطقة تامسنا، بل كانت قد تسربت إلى مناطق أخرى، واستشرى داؤها خاصة في منطقة أزغار وسايس وبلاد الهبط، وكانت عشائر رياح قد استعادت عافيتها، وعادت إلى ديدانها في الاستطالة على غيرها، وإلى التشغيب على المرنيين قدماء أعدائها إلا أن السلطان أبا ثابت سرعان ما تدارك الأمر وقرر حسم الداء قبل استشرائه، فقام بغزو بلادهم وأخذهم بالإحن القديمة ففتك بهم جيشه فقتل وشرد وسبى.

وفي نفس سنة 707هـ عندما قام عثمان بن أبي العلاء بدخول القصر الكبير مناوئا وثائرا نهض أبو ثابت من فاس حتى دخل القصر الكبير، وتلاحقت به قبائل مرين والعرب والرماة وتوجه من القصر إلى قبيلة غمارة مطاردا لعثمان بن أبي العلاء حتى دخل حصن علودان عنوة (انظر الاستقصاء ج 3 ص 95).

ويمكن القول أن القبائل الجشمية والهلالية قد عادت إلى الطاعة وأثرت الاستكانة وأعرضت عن الإخلاف والعصيان فأصبحت منتظمة في خدمة الدولة والتحق أبناؤها بالركب السلطاني في جل حركاته فعندما قام أبو ثابت بالتوجه لقمع حركات العصيان الحادثة في القبائل الغمارية وبعض المدن الشمالية كسبتة تلاحقت بذلك الركب فرسان العرب عامة مثلها مثل باقي القبائل الزناتية وبني مرين وذلك سنة 707هـ.

وإذا كان زمن أبي ثات قد شهد اضطرابات القبائل العربية فإننا في زمن أبي الربيع سليمان لم نعد نسمع عن تلك الاضطرابات بين تلك

القبائل إلا نادرا واستمرت تلك القبائل معرضة عن ذلك لفترة من الزمن وعند وفاته وتولى العرش أبو سعيد عثمان بن عبد الحق تقدمت إليه ببيعتها كبقية القبائل الأخرى مما يدل على أنها كانت قد لانت قناتها ومالت إلى السلم وأثرت الدخول في كنف الدولة وحتى تلك القبائل التي كانت قد أظعنت في القفر قد بدأت تعود إلى أحضان الدولة والسير في ركابها كما هو الشأن بالنسبة لتلك القبائل المعقلية فعندما استرضى أبو سعيد عثمان ابنه أبي علي الحسن بمنحه سجلماسة ونواحيها التحقت به تلك القبائل المعقلية فاتخذها قوة استطاع بها بسط نفوذه على قصور الصحراء والواحات الشرقية كمنطقة توات وتيكورارين وغيرها مكونا إمارة واسعة الأطراف ومكونا كيانا شبه مستقل ولكنه غير معلن وتعود هذه الأحداث إلى سنة 715هـ وما بعدها.

وفي زمن أبي الحسن كانت لا تزال لبعض القبائل الهلالية منعة ونفوذا تستطيع بهما منح حمايتها لمن يستجير بها ولو كان من أعداء الدولة وطلبتها فعندما ثار ابن هيدور على أبي الحسن ولم يجد توفيقا ونصرة وانهزم أمام الجيش السلطاني كان من أنصاره بنو زغبة من الهلالية حيث قام بنو عامر منهم وأعراب الذاوودة بحمايته وكان هؤلاء سادة قبائل رياح الهلاليين واضطر أبو الحسن إلى مفاوضة يعقوب بن علي زعيمهم وكان وسيطه في ذلك أبو حفص صهره واستطاع هذا الأخير إقناع يعقوب بتسليم ابن هيدور المدعي النسب في بني مرين إلى السلطان ولا غروا أن هذا الوعد كان هذا أجدى من الوعيد كما ينبهنا إلى أن عصب بني رياح الهلاليين كان لا يزل حيا وقويا بالرغم من النكبات التي ألحقت بهم وكانت لرياح عواصف لا تزال تهب وأعاصير قوية تعصف.

وكانت سويد العربية بجانب أبي الحسن أثناء قيامه بغزو بني عبد الواد بتلمسان، وفي أثناء قيام أبي الحسن بغزو تونس كانت من قبائل العرب سويد في ركابه، وعندما دخل مدينة تونس كان وليه عريف بن يحي كبير قبيلة السويد عن يمينه، وعندما عاد إلى المغرب بعد غرق أسطوله وحدوث الخلاف بينه وبين ابنه أبي عنان عن العرش كان وانزمار بني يحي السويدي بجانبه هو وقومه، إلا أنه اضطر إلى التخلي عنه لأن أباه كان من أنصار أبي عنان.

وعندما فتحت تلمسان راسل أبو الحسن الناصر محمد قلاون وتبادل الوفادة والهدايا وبعث أبو الحسن كبير دولته عريف بن يحي والمقدم في بساطه عطية بن مهلهل بن يحي كبير وأمير بني زغبة من عرب الهلالية وكبير أخواله من عرب الخلط.

ولما ثار أبو عبد الرحمان على أبيه أبي الحسن وفشل التجأ إلى عرب اولاد علي أمراء بني زغبة من الهلالين فاعتقله أميرهم موسى بن أبي الفضل، ورده إلى أبيه فأرسله أبي الحسن إلى وجدة معتقلا. (الاستقصاء ج 3 ص 133).

في سنة 748هـ كان أبو الحسن قد غزا تونس وعندما أراد دخول الحضرة التونسية (صف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد نحو أربعة أميال، وركبت بني مرين من مراكزهم في جموعهم وتحت رايتهم، وركب السلطان من فسطاطه، وعن يمينه وليه عريف بن يحي كبير عرب سويد) (الاستقصاء الجزء 3 ص 156). وقال ابن خلدون عن ذلك اليوم أنه كان يوما لا يرى مثله في ما عقلناه.

عندما نجا أبو الحسن من الغرق بعد أن غرق أسطوله إلى مدينة الجزائر كان أهلها لا يزالون متمسكين بطاعته، فأقام عندهم رسم الملك والتحق به بعض من بقي من الأسطول الناجي من الغرق والتفت عليه بعض العرب من أحواز الجزائر، وفد عليه أنصاره من عرب سويد الهلالين وتوجه إلى تلمسان فوجد أن بني عبد الواد قد عادوا إليها، ولما يئس منها توجه عن طريق الصحراء إلى سجلماسة هو وأنصاره من عرب سويد، صحبة وليه وانزمار بن علي السويدي فدخلها واستمر وانزمار معه إلى أن تخلى عنه بأمر أبيه الذي كان من أنصار أبي عنان

لقد شهدت دولة أبي الحسن ظروفا عصيبة كان أهمها الخلاف الذي وقع بين السلطان وابنه أبي عنان الذي بايع لنفسه معتقدا بوفاة أبيه بعدما شاع خبر غرق أسطول أبيه وعودة ظهور أبي الحسن فجأة وتشبث ابنه بالعرش في هذا الظرف نجد أن أبا الحسن يدخل في صراع مع ابنه وينتهي بمعركة تامدغوست التي سيختل فيها مصاف السلطان أبي الحسن ويسقط السلطان عن فرسه في الميدان ويقوم أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح ورديفه لحمايته والحيلولة بينه وبين فرسان بني مرين حتى ركب السلطان فرسه وسار أبو دينار في ركابه يدفع عنه فكان لهذا الرياحي هذه المأثورة التي سجلها الدهر له ولقومه وتلك غريبة أن تنقذ رياح سلطان بني مرين غريمة رياح بالأمس القريب وتكون له ردأ من بني قومه والكثير من صنائعه وتعود هذه الأحداث إلى سنة 751هـ.

وبعد اغتيال أبي عنان من قبل وزيره حسن بن عمر الفودودي والبيعة لابنه السعيد قام أبو حمو الزياني بالاستيلاء على تلمسان غير أنه

سرعان ما تركها حيث نجح الفودودي في إرغامه على تركها مما دفع بابن حمو إلى الالتجاء إلى الصحراء والاستعانة بجموع العرب من بني زغبة الهلاليين وبني معقل واتخاذهم عدة وقوة مكنته من بسط نفوذه على المناطق الشرقية والاستيلاء على سهل أنكاد وفشلت جيوش بني مرين بقيادة عامر بن ماساي في الحد من نفوذه بتلك المناطق حيث انهزمت جموعها أمام جحافل العرب وأستبيح معسكرها واستلب فكانت على بني مرين الدبرة المنكرة ولم ينقذهم من تلك المعرة إلا قيامهم بمبايعة منصور بن سليمان في مدينة تلمسان والتوجه نحو مدينة فاس وإيقاعهم بمن اعترضهم من العرب أنصار أبي حمو أثناء رجوعهم إلى فاس حيث امتلأت أيدي المرينيين بأسلابهم وتشريد جموعهم وجعلهم عبرة المعتبر.

وعندما تولى أبو سالم عرش البلاد وصفا له الملك تخلص من حسن بن عمر الفودودي بابعاده من الديوان وانشغاله بتولية أحطت منزلته عما كانت عليه بإعطائه كرسي الولاية بمدينة مراكش ونواحيها وانتظار الفرصة للتخلص منه وكان الحسن بن عمر قد أحس بما يدبر له فتركها والتجأ إلى بني جابر من عرب تادلا حيث حظى بتأيدها وحمايتها وعندما هاجمتها جيوش أبي سالم بقيادة الحسن بن علي الورتاجني التجأت بنو جابر إلى ثنايا الأطلس بجبال صناكة حيث وجد الحسن بن عمر معتصما صالحا مع حليفه الحسن بن علي الورديغي كبير بني جابر وزعيمها إلا أن الوزير نجح في جعل صناكة تتخلى عن بني جابر وصاحبها فآل الأمر بالفودودي إلى الغدر به واغتياله.

بالرغم من قيام السلطان أبي سالم بالاستيلاء على تلمسان وإخضاع الكثير من مدن مملكة بني عبد الواد لسطلته إلا أن أبا حمو الزياني كان لا يزال يهيمن على أجزاء مهمة من شرق البلاد فقد استطاع بأنصاره من عرب بني زغبة أن يثير المصاعب في وجه أبي سالم حيث تمكن من النزول إلى كرسيف ووطاط بلاد ملوية ويعمل على تخريب عمران تلك المناطق وينتسف زرعها ويهلك حرثها ونسلها مما اضطر معه أبو سالم إلى ترك تلمسان والعودة إلى المغرب لتدارك الأمر قبل تفاحشه فكان في ذلك فرصة انتهازها أبو حمو لمحاصرة تلمسان التي عجز عن الدفاع عنها أبو زيان ولي أبي سالم عليها واضطر إلى التخلي عنها لصالح أبي حمو الذي دخلها فاتحا فلم يملك أبو سالم إلا الاعتراف به ويعقد معاهدة صلح وهدنة معه.

لم تفتأ عرب الخلط تتطلع إلى من يرفع قدرها ويعيد لها سابق مكانتها فعملت على مساعدة أبي الفضل على الاستيلاء على مراكش والاستبداد بها فجعل منهم الأنصار وأثبتهم في الديوان بعد أن أخذ البيعة لنفسه وذلك سنة 769هـ وعمد أبو الفضل إلى جعل مبارك ابن إبراهيم ابن عطية كبير الخلط مستشارا فسادت الخلط على سائر القبائل بتلك المكانة وجرت ذيولا من العز بتلك الحظوة إلا أن السلطان أبا فارس لم يمهل أبا الفضل حتى تتجذر جذور دولته حيث أغذى السير من مدينة فاس إلى مراكش ليحسم الأمر ويعيد للملك اعتباره وقبل وصول أبي فارس إلى مراكش كان أبو الفضل قد توجه إلى أرض تادلا ومعه أنصاره والتجأ إلى مرتفعات بني جابر الذين أظهروا له نصرة فاعتصم بتلك المناطق ردحا من زمن. إلا أن بني جابر سرعان ما

أسلموه إلى عدوه بعدما فاوضهم في شأنه أبو فارس نظير قدر من مال مثل ما أسلموا ابن عمر الفودودي ما قبل تلك عادة ورثوها عن أباء سبقوهم بها أما الخلط فقد خسرت مكانة وعناية كانت تحظى بهما من قبل الدولة وأخذت بجريرتها كما أوخذ زعيمها مبارك بن ابراهيم الذي صودرت ضياعه ورباعه التي كانت مأوى السالك ومحجة ومثوى الغريب وخوانه كما وصفه بذلك ابن الخطيب عندما زاره ونال من إكرامه وعنايته في قصيد بعث به إليه.

كان أبو سالم قد عاود الكرة على تلمسان من أجل افتتاحها وطرد غريمه عنها أبو حمو الزياني وبعدما هيأ جيشا مهما من بني مرين وجموع العرب الداخلين تحت لواء الدولة جعل قيادة تلك الجموع لأبي بكر بن غازي وقد تمكن هذا الأخير من إلحاق الهزيمة بأبي حمو والتضييق عليه ومحاصرة مدينة تلمسان مما ألجأ أبا حمو إلى التخلي عن المدينة والإظعان في القفر هو وأنصاره من عرب بني معقل وبني زغبة الهلاليين وهذا يفيدنا في أن هؤلاء العرب كانوا منقسمين من حيث ولائهم بين بني مرين وبين بني عبد الواد وترجع هذه الأحداث إلى سنة 772هـ.

كان السلطان أبو العباسي أحمد بن أبي سالم قد تولى العرش بعد أبيه إلا أنه واجه عدة مشاكل منها ثورة محمد بن عبد الحليم الذي شغله زمنا طويلا وبالرغم من فشله فإنه تمكن من الاختفاء ردحا من زمن عند عرب الأحلاف الذين عملوا على مناصرته والذين ساعدوه على الاستيلاء على سجلماسة حيث اغتنم انشغال أبي العباس بمواجهة حركة العصيان التي دبرها الوزير مسعود بن ماساي إلا أن أبا العباس

ما أن تم له القضاء على حركة العصيان بفاس حتى تفرغ لمواجهة محمد بن عبد الحليم وأنصاره من عرب الأحلاف.إلا أن محمد بن عبد الحليم أسرع بترك سجلماسة عندما أحسن بقدوم جيش السلطان والتحق هو وأنصاره بأحياء العرب المناوئيين لبني مرين في شرق البلاد حيث عمل هؤلاء على حمايته والسير في ركابه إلى تلمسان التي كان أبو حمو الزياني قد عاد إليها بعد أن تخلى عنها ولي المرنيين.

ويبدو أن عرب الشرق من المعقيلية وزغبة الهلالية وغير هؤلاء كانوا غير مستقرين على ولاء أو بيعة لأحد فتارة هم لبني مرين وأخرى لبني عبد الواد فقد أحدث شيخ بني معقل ثورة ضد السلطان أبي العباس ثم ثارت المعقلية على نفسها وقدمت شيخها الثائر للسلطان كبش فداء مراجعة لطاعته فعمل السلطان على امتحانه إلى أن هلك.

قبائل الشاوية وبنو مرين:

كانت قبائل الشاوية تهيمن تقريبا على الجزء الشمالي من بلاد تامسنا وهذه القبائل هي عبارة عن مزيج من القبائل الهلالية الجشمية والزناتية مما شكل نموذجا لإنسية مغربية تجانست عناصرها ووحدتها المصاهرات واللغة العربية التي سادت في المنطقة منذ القرن السادس. وقد عرفت هذه القبائل بحدتها وشجاعتها وإثارتها للاضطرابات ففي زمن السلطان عبد الحق بن أبي سعيد أثارت هذه القبائل الاضطرابات وألحقت الأضرار بغيرها شجعها على ذلك غياب السلطة المركزية ومراقبتها وانشغالها بالصراع مع بني عبد الواد.

كان السلطان عبد الحق بن أبي سعيد قد كلف وزيره أبا زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي بالقضاء على تلك الاضطرابات التي أحدثتها قبائل الشاوية، وقد تمكن هذا الوزير من فل جموع تلك القبائل والضرب على يدي مثيري الفتنة فيها وإعادتها إلى الطاعة، وإزاحة علل التشغيب عن ساحتها. ووافقت هذه الأحداث سنة 846هـ والواقع أن هذه الأحداث وافقت الحلقات الأخيرة من حياة الدولة المرينية التي كانت قد تهاوت صروحها وأصبحت آيلة إلى الانهيار والتي ستخلفها دولة الوطاسيين.

عرفت هذه الفترة أحداثا سيئة في حياة المجتمع المغربي فانهيار دولة المرينيين وقيام إمارة أبي عبد الله محمد الشريف الإدريسي الجوطي بفاس ودخولها في صراع مع الوطاسيين في وقت كانت البلاد قد سادتها الاضطرابات وتعرضت للغزو البرتغالي مما شجع هذه القبيلة على العودة على إثارة الفتن ومهاجمتها لجيرانها وغيرها وذلك بالإغارة على بلاد الغرب وسايس والاستطالة على قبائلها إلى أن تمكن الوطاسيون من حسم الداء وإيقاف زحفها على تلك المناطق.

العصر السعدي والهلالية ومن إليهم

إذا كان القرن التاسع الهجري قد شهد الغزو البرتغالي للبلاد وسيطرة أولئك البرتغاليين على مجموعة من المدن الساحلية المغربية وخضوع الكثير من القبائل الساحلية المغربية للغزاة فإن صراع الوطاسيين مع السعديين الذين ظهروا كقوة تحرير وجهاد في أقاليم سوس وانطلاقا منها إلى مناطق الحوز وتامسنا قد جعل العرب في كل من تلك المناطق ينقسم ولاؤهم بين السعديين والوطاسيين.

تمكن السعديون من بسط نفوذهم على بلاد الحوز والجزء الأعظم من تامسنا ودخل عرب تلك النواحي تحت حكمهم ولما رأى ذلك أبو العباس أحمد الوطاسي عزم على النهوض لمقاومة نفوذ أولئك الأشراف والحد من نفوذهم وعمل على تجهيز حملة ضدهم وكانت تلك الحملة مجهزة من الجند الوطاسي وقبائل الغرب من بني مالك وسفيان وغيرهم بينما عمل السعديون على مجابتهم بأنصارهم وقبائل عرب الحوز وتامسنا وعرف الجانبان اللقاء في منطقة أبي عقبة على واد العبيد وبالرغم من صمود الوطاسيين في المعارك التي شهدتها المنطقة واستماتة الجانبين في القتال فإن تلك المعارك انتهت بانتصار أبي العباس السعدي على غريمه الوطاسي ومنذ ذلك التاريخ فقد الوطاسيون نفوذهم على أعظم المناطق الخاضعة لهم وتعود هذه الأحداث إلى سنة 943هـ.

أصبح العرب في هذه الفترة تتوزعهم الحكومات فبعضهم يعمل لصالح السعديين وبعضهم تابع الوطاسيين وجزء منهم خاضع

للبرتغاليين وخاصة في المناطق الساحلية واستخدم الكثير منهم من أجل تحقيق أغراض عسكرية وسياسية من غير أن تكون لهؤلاء العرب مصالح واضحة فيما سخروا فيه ومن أجله باستثناء الجهاد ومقاومة الغزاة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن جزءا مهما من هذه القبائل العربية قد أصبح يخضع للبرتغال وخاصة في المناطق الساحلية ولم تعد قوة الوطاسيين ولا حركة السعديين قادرة على تخليصهم أو حمايتهم وبالأخص أولئك الذين جاوروا مدن أسفي والبريجة والمعمورة وأصيلا التي احتلها البرتغاليون. ولم نعد نعلم شيئا عن مصير الكثير منهم، ولم تقدم لنا المعلومات التاريخية عنهم إلا معلومات ضبابية يكتنفها الكثير من الغموض، وكل ما نعلمه عن هؤلاء العرب الخاضعين للبرتغال في السواحل فهم كانوا يدفعون الإتاوات والضرائب للأولئك الغزاة، وأن بعضهم كان يثور عليهم كلما سنحت فرصة لذلك، وبعضهم استسلم أو أسر وحول من الحرية إلى القنانة وبعث به إلى البرتغال كرقيق ولم يقتصر ذلك على الرجال بل شمل النساء والأطفال وأجبر الكثير منهم على التنصير وأغلبية هذه المعلومات مستاقة من المصادر البرتغالية التي أرخت بهذه الفترة. أما ما كتبه المغاربة عن علاقة هؤلاء العرب بالدولة أو بالبرتغال فجله أو أهمه إما ضاع أو لا يزال في الرفوف تتغذى عليه القراضة إن كتب. وقد ترك ذلك ثغرات في معرفة جزء مهم من التاريخ المغربي وصفحات مجهولة من حياة هذه الأمة.

وإذا كان مصير عرب السواحل قد عرف اضطرابا وغموضا فإن عرب المناطق الداخلية كانا عكس ذلك فهم إما حلفاء السعديين وإما

أنصار الوطاسيين مما يوحي بعدم وجود شعور بالوحدة بينهم. وعلى تجدر الخلافات المستمرة فيما بين شيوخهم وكبرائهم ويبدو ذلك واضحا في الصراع الذي وقع بين أبي حسون الوطاسي ومحمد الشيخ السعدي، فعندما حاصر محمد الشيخ مدينة فاس قاومه أبو حسون برماة فاس ومن انضاف إليهم من جموع العرب وذلك سنة إحدى وستين وتسعمائة. 961هـ.

ويبدو أن السعديين استخدموا جزء كبيرا من هؤلاء العرب في حركاتهم ضدا أعدائهم فالشياظمة وعبدة وجزء من دكالة وعرب تامسنا وسفيان والخلط كانوا في ركاب السعديين بالاضافة إلى عرب سوس والواقع أن دور هذه القبائل بدأ يعود إلى مسرح الأحداث منذ بداية العصر السعدي فالتاريخ يحدثنا أن الغالب بالله السعدي جهز جيش كثيفا لفتح الجديدة واستنفر لها قبائل الحوز من عرب وغيرهم، وزحف إليها محاصرا لها مدة تزيد على شهرين إلا أنه لم يوفق لفتحها لمنعة أسوارها وورود الامدادات إليها.

وإذا ما رجعنا إلى زمن الصراع بين محمد الشيخ السعدي وأبي حسون الوطاسي فإننا سنجد أن الشيخ استخدم قوات العرب في حصار فاس وأن بعض تلك القوات كان متلكئا في مناصرة الشيخ مما يفسر عدم الاستجابة له كما فعل عرب الخلط الذين اتهمهم الشيخ بعدم النصح في حصار فاس على أنهم كانوا قبل ذلك مظهرين للطاعة حتى أنه جعلهم من جنده إلا أن رأيه فيهم قد تغير بعدما تأكد من عدم نصحهم أثناء محاصرة فاس فعمل على إسقاطهم من الجندية وجعلهم في القبائل الغارمة التي طبق عليها نظام ضريبة النائبة.

وفي أثناء الصراع الذي دار بين عبد الملك السعدي والمتوكل يبدو أن المتوكل اعتمد على جزء مهم من العرب في حركاته ضد معارضه، ومن هؤلاء عرب سفيان وأولاد عمران وكان القائد جرمون قائد سفيان من أهم قواد المتوكل أثناء الصراع الداخلي إلا أن الانقسام الذي حدث في صفوف المتوكل جر عليه الهزيمة أمام منافسيه عبد الملك والمنصور.

وعندما اشتد الصراع بين الطرفين واستعان المتوكل بالبرتغال اضطر عبد الملك إلى الاستعانة بكل القوات الحية في البلاد من عرب وسوس وأشراف ورجال دين لمواجهة الزحف البرتغالي المندفع من الشمال. وكانت عرب الخلط من بين ما استخدمه عبد الملك من تلك المواجهة التاريخية بواد المخازن حيث أبدى هؤلاء الخلط نصحا وجلادا في تلك المعركة الشيء الذي أثار انتباه أحمد المنصور فعمل على استخدام جزء كبير منهم في جنده ومنحهم سهول أزغار أرض المعركة فيئا ومغنما يستمرئون زرعها وضرعها فكثر نفرهم وأطغتهم النعمة ومدوا أيديهم إلى غيرهم بالعسف والبطش حيث كثرت بهم الشكايات من أولاد مطاع وبني حسن فعمد المنصور إلى سلبهم ما منحهم من قبل وأسقطهم من الجندية وغرب الكثير منهم وواصل البعث عليهم حتى لجأوا إلى الربا والهضاب وبعثوا بالوسائط والشفاعات وسلموا الخيل والسلاح فكان لهم في ذلك سوء المنقلب وكان ذلك على يد قائد المنصور موسى ابن أبي جمدى العمري كما عند الناصري والفشتالي وغيرهما.

عرف أحمد المنصور تنظيما جديدا للجيش لم يعرفه المغاربة من قبل المنصور بحكم قضائه لمدة غير يسيرة في الجيش التركي قبل عودته وأخيه

للمغرب تأثرا بالأنظمة التركية في المجال العسكري وعندما وصل إلى مركز الحكم في البلاد حاول إدخال تلك الأنظمة إلى الجهاز العسكري المغربي ولم يعد معتمدا في الحكم على الأنظمة المغربية التقليدية في الإجلاب بالقبائل وتجييشها ظرفيا ثم صرفها بل اعتمد تنظيما جديدا يقضي بالاعتماد على جيوش منظمة فاتخذ من بعض تلك القبائل العربية جيشا منظما تضمه القلاع والحصون كما فعل مع قبائل شراقة عرب شرق البلاد ومع جيش أهل سوس المكون من شبانات وزرارة ودليم وأولاد مطاع وغيرهم كما اتخذ من عرب الأندلس ومهاجريهم جيشا آخر ومن هؤلاء كان الرماة وخاصة رماة المدفعية أو ما يعرف بعسكر النار.

إلا أن المنصور لم يكن مطمئنا إلى الاستكثار من أبناء تلك القبائل في الجيش بعد ما تبين له أن عوائد البداوة متمكنة من أبناء تلك القبائل الذين أصبحوا يشكلون عصب الجيش وأن ذلك لا يليق بدولة تسعى لإيجاد إدارة وجيش يخضعان لنظام مركزي حريص على الاحتفاظ على هيبة الدولة الذي لا يتم إلا بشيء غير قليل من الانضباط والجدية.

إن هذه المنهاجية في الحكم تبدو واضحة في الرسالة التي بعث بها أحمد المنصور إلى ابنه محمد الشيخ المأمون خليفته في فاس وولي عهده الذي سلك سياسة لا يرضاها الأب حيث نجد أن المنصور ينتقد الابن على إدخاله بعض العرب في شؤون الحكم والجيش وخاصة عرب أولاد طلحة من الشاوية حيث يقول عنهم في تلك الرسالة (فالقوم لا يحتفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن إخفاؤه ولا إبداؤه).

ونفهم من هذه الرسالة أن أحمد المنصور كان لا يريد أن تكون لهؤلاء العرب من السلطة والنفوذ ما يجعل منهم أصحاب قرار أو تعهد إليهم المهام والوظائف الحساسة في الدولة لأنهم على غير ذي نضج سياسي كاف حتى تكال إليهم مثل تلك المهام الخطيرة كما تظهر لنا تلك الرسالة سياسة المنصور تجاه تلك القبائل وموقفه منها وتكشف لنا سياسته معها في اعتماد المال في تحريكها عند الحاجة وكيف أنه كان يجلب بعضها ويعرض عن بعضها فعرب أولاد مطاع وأولاد بو عزيز والغربية وأولاد عمران وعبدة والشياظمة وأولاد أبي رأس وعرب أحمر والمنابهة أهل سوس والمنابهة أصحاب عمر بن محمد بن عبو كانوا عمدة المنصور في الإجلاب كرديف للجيش.

وإذا ما انتقلنا إلى عهد ما بعد المنصور فإننا سنجد أن الخلافات التي شبت نارها بين أبنائه من أجل كرسي المملكة مما سيعرض البلاد من جديد إلى التدهور وعودة الخطر الأجنبي وفقدان المكتسبات التي حصلت عليها الدولة زمن المنصور ويؤدي إلى انقسام المملكة وتمزيق وحدة البلاد وارتماء بعض الأمراء في أحضان العدو استهتارا بمصالح الأمة واستجابة لنزوات وأنانيات قاتلة وقد سخر أولئك الأمراء تلك القبائل العربية لتحقيق أغراضهم ودفعوا بها إلى أتون المعارك من غير أن تكون لأولئك العرب مصالح يجنون ثمارها من وراء ذلك الصراع غير تركهم لحقول الإنتاج وانعكاس ذلك سلبا على اقتصاديات البلاد وكيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

إن الصراع الذي قام بين كل من زيدان وأبي فارس ومحمد الشيخ المأمون أبناء المنصور كان فيه لهؤلاء العرب دور خطير فقد اعتمد محمد

الشيخ على قبائل عرب الغرب وأزغار من بني مالك وسفيان وبني حسن ولم يستطيع أبو فارس ولا زيدان القضاء عليه حتى أنه حاصر زيدان في مدينة فاس بتلك القبائل ولما لم يتمكن زيدان من مقاومته تخلى له عن فاس بعدما شعر أن أهل فاس قد تخلو عنه فاضطر إلى تركها والتوجه إلى مدينة تلمسان في وقت دخل فيه محمد الشيخ فاسا مع أنصاره من عرب الغرب وأزغار.

والملاحظ أن تلك القبائل من الهلالية والجشمة والمعقلية كانت منقسمة على نفسها وفي ولائها بين أبناء المنصور متناحرة مدافعة عن هذا الأمير أو مناصرة لآخر، ويبدو ذلك واضحا في مجريات الأحداث التي وقعت بعد عودة زيدان من تلمسان واستيلائه على مراكش.

كان زيدان قد تمكن من الاستيلاء على مراكش وطرد منها الأمير عبد الله بن محمد وقتل الكثير من أنصاره وذلك سنة 1015هـ غير أن محمد الشيخ أرسل ابنه إليها مصحوبا بقوات كبيرة من أنصاره فتمكن عبد الله من دخول المدينة بعدما تخلى عنها زيدان الذي التجأ إلى الجبال المجاورة إلا أن أهل مراكش لم يرضخوا للأمير عبد الله حيث عمدوا إلى مبايعة محمد بن عبد المؤمن السعدي وقاوموا قوات الأمير عبد الله إلا أن الأمير محمد بن عبد المؤمن عفى عن أنصار عبد الله من عرب الغرب تأليفا لهم ورغبة منه في الاستكثار بهم على خصومه فلم يرق ذلك أنصاره من عرب الحوز وغيرهم من أهل مراكش فنكثوا بيعته وعادوا إلى مبايعة زيدان من جديد الذي نزل مع أنصاره من الجبل وتمكن من إلحاق الهزيمة بمحمد بن عبد المؤمن واستولى على مراكش ولم يرض هو الآخر أهل مراكش الذين أملوا فيه القيام بالبطش بعرب الغرب أنصار الأمير

عبد الله بل هو الآخر عفى عنهم آملا في استيئلافهم والاستفادة منهم في مناهضة محمد الشيخ وتقربا إلى قبائلهم في الغرب وأزغار.

في سنة 1018هـ كان أبو فارس قد عاد من سوس والتحق بأخيه محمد الشيخ بفاس بعد أن تم الصلح بينهما وأصبح مرافقا لعبد الله بن الشيخ وفي هذه الأثناء هزمت جيوش زيدان التي كان يقودها مصطفى باشا أمام قوات محمد الشيخ وقد قتل في تلك المعركة القائد مصطفى غير أن عرب شراقة من أنصار الشيخ اتفقوا على قتل عبد الله ابن الشيخ وبيعة عمه أبي فارس إلا أن تلك المؤامرة لم تتم إذ بمجرد أن علم عبد الله بذلك أسرع إلى البطش بعمه أبي فارس حيث قتل خنقا فسقط ذلك في يد عرب شراقة غير أن زيدان أسرع بالزحف على فاس في جموع كبيرة واستطاع دخول المدينة مغتنما فرصة الانقسام في صفوف أنصار الشيخ وعملت عرب شراقة على مناصرته إلا أن عبد الله لم يستسلم فسرعان ما عمل على جمع قواته المؤلفة في أغلبها من عرب الغرب وأعاد الكرة على فاس والقيام بمحاصرتها وتمركزت قواته في منطقة القنطرة المهدومة.

أصبح زيدان يرى أن طول الحصار على فاس سيستنفذ قواته وأن لا مناص له من مواجهة فاصلة بينه وبين عدوه فاستنفر أنصاره للخروج واستطاع سحق قوات غريمه الذي صمد طويلا هو وأنصاره من عرب الغرب إلا أن المعركة انتهت لصالح زيدان وهزيمة جموع عبد الله.

بالرغم من الانتصار الذي حققه زيدان على خصمه فإن عبد الله لم يفقد الأمل في تحقيق النصر على عمه بل بادر إلى إعادة تنظيم صفوفه

وحشد قواته وإعادة الكرة للمرة الثانية على فاس ففي سنة 1019هـ نزلت قواته برأس الماء محاصرة لفاس فاضطر زيدان للخروج إليه بجيشه غير أن هذه المرة لم تكن الحظوظ في صالحه فقد أسفرت تلك المعركة عن هزيمته وقتل الكثير من أنصاره فترك فاسا والتحق بمراكش بينما دخل عبد الله بن الشيخ إلى فاس في جموع عرب الغرب.

كان الشيخ محمد المأمون قد التحق بالعرائش عندما هزمه زيدان فدفعه حب الرياسة إلى الالتجاء إلى اسبانيا والاستصراخ بملكها ضد أخيه متنازلا عن مدينة العرائش للاسبان نظير مساندتهم له إذ كان الاسبان يرغبون في تعويض خسائرهم في الجزائر أمام الأتراك.

نزل الشيخ محمد المأمون بحجر بادس من سواحل الريف مصحوبا بقوات اسبانية وذلك في ذي الحجة عام 1018 فخرج إليه وفد من مدينة فاس وفيهم القاضي أبو القاسم بن أبي نعيم مؤدين له البيعة وفي خلال عودتهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم الأموال وجردوهم من المحيط والمخيط حتى دخلوا فاس وهم عراة يخصفون عليهم من ورق سترا لعوراتهم إلا القاضي فإنهم عرفوه فاحترموه ولم يؤذوه بشيء.

أما زيدان فقد استقر بمراكش ورضى بالمقام وإن لم يطب وأعرض عما آل إلى محمد الشيخ المأمون وابنه عبد الله غير أنه سرعان ما فوجئ بقيام الفقيه أبي العباس السجلماسي بثورة في الجنوب الشرقي واستيلائه على مدينة سجلماسة ونواحيها وتوسعه في درعة وزحفه على مراكش التي اضطر زيدان إلى التخلي عنها فدخلها أبو العباس المكنى

بأبي محلي ولم يلتجئ زيدان هذه المرة إلى الجبال بل ذهب إلى أسفي واستصرخ بأبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي الذاوودي مخاطبا إياه (إن بيعتي في أعناقكم) فاستجاب له أبو زكرياء وزحف إلى مراكش بجموعه مناصرا لزيدان ومتوعدا لأبي محلي في رسالة وجهها إليه قائلا (قد أتيتك بأهل البنادق والأحرار من عرب الشبانات ومن انتمى إليهم من بني جرار ومن أهل الشرور والبأس من هشتوكة إلى بني كنسوس) وقد انتهى ذلك اللقاء بين أبي زكرياء وأبي محلي بانتصار أبي زكرياء والمهم أن أبا زكرياء استعان بعرب سوس من الشبانات وأولاد جرار ذات الأصول المعقلية استعانته بهشتوكة وبني كنسوس من البربر مما يثبت دور هؤلاء العرب في سيرة التاريخ المغربي في مختلف مراحله ووافقت هذه الأحداث سنة 1022هـ.

وإذا ما رجعنا إلى الوراء فإننا سنجد أن أبا محلي عندما أعلن الثورة على السعديين كانت البلاد تعيش ظروفا صعبة فالصراع بين زيدان ومحمد الشيخ أدى إلى استصراخ الشيخ بالاسبان والتنازل عن مدينة العرائش وعودة خطر التوسع الأجنبي في البلاد وإعلان أبي محلي عزمه على محو الفساد والقيام بالجهاد ضد العدو إلا أن نفوذه لم يتعد مراكش إلى أن قضى عليه وظهرت في هذه الفترة شخصية أخرى كداعية جاهد مثلها أبو سعيد الدكالي الذي حرك قبائل الشاوية ودكالة للقيام بهذه المهمة وزحف مع جموع المجاهدين إلى الجديدة وانضم إليه قائد زمور في محاولة لطرد البرتغاليين إلا أن هدفه لم يتحقق فقد فارق الحياة أثناء ذلك الحصار الذي فرضه على الجديدة فكان في ذلك تثبيط لعزيمة المجاهدين مما أدى إلى افتراقهم.

ويبدو أن أهم شخصية جهادية عرفتها الفترة هي شخصية أبي عبد الله محمد العياشي بن أحمد المالكي الزياني وهو من أبناء قبيلة بني مالك والتي تعتبر من أهم قبائل الغرب العربية وكان من أولئك الذين تربوا تربية دينية وروحية على يد رجال التصوف الذين كانوا يعلمون على تهيئ المريدين لغايات روحية وجهادية وقد استطاع هذا الرجل تجنيد قبائل الغرب وعرب تامسنا وغيرهم من أجل تحقيق هذه الغاية الشريفة.

واجهت جموع المتطوعة من العرب وغيرهم بقيادة أبي عبد الله محمد العياشي أعتى القوات الأجنبية المتمركزة على السواحل المغربية من برتغال واسبان وانجليز وألحقت بتلك القوات أفدح الخسائر وتقلص نفوذها حتى لم يعد يتعدى أسوار المدن والتحصينات التي تحتمي بها.

لم يمر وقت طويل حتى تمكن أبو عبد الله العياشي من بسط نفوذه على منطقة واسعة من سواحل البلاد وسهولها الغربية وشمل ذلك مدن الرباط وسلا وأزمور ووصل ذلك النفوذ إلى سايس ومدينة فاس التي جاءته بيعتها مما أثار حفيظة أهل زاية الدلاء الذين رأوا في أبي عبد الله العياشي خطرا على نفوذهم في المنطقة فناصبوه العداء.

وعندما قام أبو عبد الله العياشي بمهاجمة مدينة المهدية أو المعمورة سابقا تمكنت قوته من إحراز نصر كبير على القوات المسيحية الاسبانية حيث قتل منها في تلك المعركة حوالي الأربعمائة من فرسانها ورماتها بينما فقد المجاهدون نحو مائتين وسبعين منهم مع أن قوات المجاهدين لم تكن تملك ما تمتلكه القوات الاسبانية من العتاد، ومنذ ذلك أصبحت قوة العياشي تهاجم المراكز الأجنبية في العرائش التي كان الإسبان

يحتلونها والقوات الإنجليزية في طنجة والبرتغالية في الجديدة وأصبحت قوات المجاهدين تحقق انتصارات متوالية وعلى مختلف الجبهات ومن المعارك التي خاضها العياشي ضد القوات الاسبانية معركة العرائش التي أوقع فيها بالاسبان على ضفاف وادي لكوس حيث كمنت قواته للجيش الاسباني الذي خرج لمواجهة المجاهدية هادفا تدميرها فوقع في كمين نصب له من قبل المجاهدين وكاد القتل يأتي على مجموعه لولا تراجعه لائذا بتحصينات المدينة.

كان أبو عبد الله العياشي يقود قبائل عربية مختلفة يأنف بعضها عدم الخضوع لغير شيوخهم وكبرائهم ولم تعرف تلك القبائل وحدة فيما بينها إلا نادرا ولا تعمل إلا تحت رايات الملوك خوفا أو طمعا فسفيان والخلط وبني حسن وغيرهم من قبائل بني جشيم وبني معقل كانت في تنافس دائم فيما بينها منذ عهد الموحدين ومن تلاهم وكانت لا تحركها في الغالب إلا الحوافز المادية. وبالرغم من تعرضها للغزو البرتغالي فإن حوافز الوحدة بينها كانت لا تزال ضعيفة وروح المقاومة غائبة إلا قليلا حتى جاء أبو عبد الله العياشي فنفخ فيها تلك الروح ولم شتاتها وقادها إلى ميادين الشرف وإذا كانت بعض القبائل تأنف الالتزام بالتعليمات والمحافظة على النظام فإن أبا عبد الله العياشي كان حازما وغير متساهل في هذا الشأن فكان ينذر ويوبخ كل متقاعس عن القيام بتلك الواجبات.

في هذا الظرف عمل الدلائيون على تقوية مركزهم ونشر حزبهم بطرق مختلفة فزواياهم نشطت وأصبحت تدعو إلى طريقتهم مستعملة

مختلف الوسائل وولاتهم أضحوا يعملون سرا وعلنا من أجل تحول تلك القبائل ذات الولاء للعياشي إلى طريقتهم وتحريضها على مناوأة حركة أبي عبد الله خاصة بعد أن زاحمهم في فاس ونواحيها وتمكنوا في النهاية من جعل بعض القبائل العربية مثل دخيسة المعقلية الأصل والخلط الهلالية النسب تعمل لصالحهم.

لم يكتف الدلائيون بمعارضة أبي عبد الله ومنافسته بل عمدوا إلى تدبير مؤامرة اغتياله فعندما رجع هو وأنصاره من مناهضة الإنجليز بطنجة ومحاصرتهم وجد قوات الدلائيين في انتظاره وبعد مواجهة بين الطرفين استراح هو وأنصاره بالخلط حيث نفذت مؤامرة اغتياله من قبل الخلط وتلك جريرة لم يغفرها التاريخ لمدبريها.

تم اغتيال أبي عبد الله العياشي بعين القصب واجتز رأسه وحمل إلا سلا ودفنت جثته بازاء روضة أبي الشتاء ومضى مثلا للفداء وعنوانا للجهاد وخلفه ابنه عبد الله مواصلا حركة الجهاد وعندما حاول الدلائيون القضاء عليه ثأر لوالده منهم في معركة شهدتها سهول الغرب كانت فيها الدبرة على أهل الدلاء (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

نهاية السعديين وقيام إمارة الشبانات:

عندما بايع أهل مراكش أبا العباس أحمد السعدي اتخذ من أخواله عرب الشبانات عمدة وأنصارا فقويت شوكتهم واستطالوا على غيرهم وأدى بهم ذلك إلى أن اشرأبت أعناقهم إلى معالي الأمور فطمعوا في الحكم والجلوس على سدة الملك وكان زعيمهم في ذلك كبيرهم عبد

الكريم الشباني فانتزوا على أبي العباس السعدي واغتالوه ونصبوا كبيرهم عبد الكريم بن أبي بكر الشباني على أريكة الملك تنصيب بيعة وسلطان فكان أول أمير من أمراء القبائل العربية المعقلية يتبوء كرسي المملكة في هذه البلاد منذ حلول المعقلية الهلالية أرض الوطن وكانت نهاية العصر السعدي الملحمي الأحداث على يد هؤلاء الشبانات من عرب المعقل ووافقت هذه الأحداث سنة 1069هـ.

كانت مملكة الشبانات قد شملت مراكش ونواحيها ولربما شملت أهم مناطق الحوز، إلا أن عبد الكريم فشل في التوسع شمالا ولم تطعه القبائل الواقعة على أم الربيع، ولم يتمكن من احتلال مدينة وبالرغم مما أظهره من سيرة حسنة توددا وتزلفا إلى رعيته، فإنه فشل في كسب ود من جاوره من قبائل الأطلس الكبير وقبائل سوس، إذ كانت هناك زعامات طموحة تغذيها روح دينية وصوفية وتحركها أحيانا حوافز مادية.

لم يمر كبير وقت حتى لقي عبد الكريم الشباني مصيرا لا يختلف عما آل إليه مصير أبي العباس السعدي، فقد اغتيل من قبل أعدائه وبالرغم من قيام ابنه أبي بكر بالأمر بعده، فإنه لم يكن بتلك الشخصية القوية مثل أبيه إذ كان دونه طموحا ومقدرة، فقد كانت إمارته شاحبة اعترتها أعراض الضعف منذ البداية وكانت نهايته على يد الأشراف العلويين حيث قام المولى الرشيد بالقضاء على إمارة الشبانات بدخوله مراكش والعمل على محو آثارهم.

ظهور الأشراف العلويين وعلاقة العرب الهلالية وغيرهم

كان مولاي محمد بن الشريف قد استطاع السيطرة على منطقة سجلماسة أو تافيلالت كما أصبحت تعرف في هذا التاريخ، وعمل على توسيع نفوذه في المغرب الشرقي في اتجاه وادي الساورة وتديكيليت كما بسط نفوذه على المناطق الشمالية الشرقية للبلاد شاملا منطقة أنكاد ودخلت عرب تلك النواحي تحت نفوذه من بني نصير وذوي منيع وحميان وغيرها من القبائل، وعندما اتجه نحو تلمسان دخلت عرب بني عامر وغيرها في طاعته، وفي هذه الأثناء كاتبه عرب الغرب في شأن الدلائيين مستصرخين إياه فبادر القيام بمهاجمة أهل الدلاء في فاس وألقى القبض على أبي بكر التاملي عامل الدلائيين على فاس وكان ذلك سنة 1060هـ. إلا أن محمد الحاج الدلائي أميرهم سرعان ما أعاد الكرة على فاس فاضطر المولى محمد إلى العودة إلى سجلماسة فعمد أبو بكر التاملي إلى اضطهاد الكثير ممن لم يقبل بحكم الدلائيين من أهل فاس، واستمرت الأحوال على ما هي عليه إلى سنة 1070هـ. حيث تمكن أبو عبد الله محمد الدريدي من عرب دريد من عرب المغرب الأوسط الاستيلاء على جزء مهم من مدينة فاس بمساندة من إخوانه عرب دريد الذين كانوا متواجدين في فاس قبل هذا التاريخ.

إن عودة محمد بن الشريف إلى سجلماسة جعلته يعمل على إعادة تنظيم صفوفه والقيام بإخضاع عرب الغرب الشرقي وخاصة أولئك الأحلاف من ذوي الأصول المعقلية مثل العمارنة والمنبات وقبيلة سقونة

وقد استخدم هذه القبائل في إرغام بني يزناسن من البربر على تقديم الطاعة والتضيق عليها لما كانت عليه من علاقة مع أتراك الجزائر وكان في ذلك فرصة لتلك القبائل المعقلية في أن تتخذ من سرح بني يزناسن غنيمة وتتحول من ممتلكاتها وسيطرته على بني يزناسن فتح الطريق لبسط نفوذه على قبائل عرب بني عامر وحميان في الشرق بينما فرت قبائل عرب الحرث وحصين وسويد لائذة بالقفر.

لم يستمر مولاي محمد في التوسع شرقا إذ سرعان ما عقد صلحا مع أتراك الجزائر وعاد إلى أنكاد وحوض ملوية، واتجه غربا نحو مضيق تازا ومهاجمة قبائله من عرب الأحلاف الذين تحالفوا ضده أثناء مهاجمته مدينة فاس وخاصة عرب الحياينة الذين ناصروا أبا عبد الله محمد الحسني فعمل على مهاجمتهم وإلحاق الهزيمة بهم وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1073هـ..

لم يكد مولاي محمد الشريف يتخلص من مشكل خلافه مع الأتراك ويقوم بتثبيت نفوذه في شرق البلاد ويعيد تنظيم دولته في سجلماسة، حتى ظهر أخوه المولى رشيد وهو يحمل لواء المعارضة له ويدعو لنفسه وينجح في إقناع عرب الأحلاف بمنطقة تازا بمناصرته ويهيمن على جزء من جبال الريف ويستولي على دخائر اليهودي ابن مشعل ويبسط نفوذه على بني يزناسن، فكان ذلك سبب الخلاف والمواجهة بينه وبين أخيه. وفي معركة أنكاد بين الطرفين فقد مولاي محمد حياته وتم لمولاي الرشيد النصر معززا بقبائل عرب الأحلاف فضم إليه مناطق الشرق المغربي وكان ذلك عام 1075هـ..

كانت فاس قد امتنعت على مولاي رشيد ودخلت في حلف مع عرب الحياينة وعرب البهاليل ولذلك لم يتجه لفتحها مباشرة بل فضل الإقامة بسجلماسة لمواجهة المقاومة التي كان يقودها ضده ابن أخيه المعروف بمولاي محمد الصغير.

وفي سنة 1076هـ. قام مولاي رشيد بمهاجمة فاس ومحاصرتها للمرة الثانية ثم تراجع عنها مدة ثم كرر محاولته فاضطر أميرها أبو عبد الله الدريدي كبير عرب دريد من الأثبج الهلاليين المستبد بالأجزاء الكبيرة منها إلى تركها مما أتاح فرصة الدخول إليها من قبل مولاي رشيد بعد أن غادرتها عرب دريد وفشلت حامية فاس وعرب الحياينة في مقاومته.

إن دخول فاس من قبل الرشيد جعل فتح مراكش غير عسير إذ لم يكن أبو بكر الشباني ندا له ولا قوي الشكيمة لمواجهته، وبسقوط مراكش دخلت تحت طاعة الرشيد عرب الغرب وتامسنا والحوز ودانت له عرب أهل سوس من الشبانات ودليم وأولاد جرار وزرارة وأولاد جلال وغيرهم، وضمن طاعتهم خليفته في تارودانت أخوه المولى إسماعيل.

في هذه الفترة دخلت إلى المغرب مجموعة من قبائل المغرب الأوسط رافضة البقاء تحت حكم دايات الجزائر من الأتراك وفضلت الالتجاء إلى المغرب والدخول في خدمة السلطان، ومن أبرز هذه القبائل قبيلة بني عامر والشجع ومديونة وهوارة وبني سنوس من البربر، وقد

جعلها مولاي رشيد قبيلة واحدة عرفت فيما بعد باسم شراقة ومنحها جزءا من أراضي فشتالة وصدينة فيما بين ورغة وسبو.

لم تدم مدة حكم المولى الرشيد طويلا إذ سرعان ما اخترمته المنية فخلفه المولى إسماعيل الذي انتقل إلى فاس ومنها إلى مكناس التي سيتخذها عاصمة لملكه، وواجه في هذه الظروف ثورة مولاي أحمد بن محرز مستغلا تذمر أهل سوس وحوز مراكش حيث تمكن ابن محرز من دخول مراكش مطالبا بالعرش في حين كان المولى اسماعيل مشغولا بتثبيت ركائز الحكم في المناطق الشرقية التي شغب عربها على الدولة وقطعوا سبل وطرق القوافل التجارية.

لم يتردد المولى إسماعيل في القيام بالقضاء على تلك الحركة وإعادة الأمن إلى تلك المناطق ذات الحساسية السياسية بحكم مجاورتها لحدود أتراك الجزائر وترجع هذه الأحداث إلى سنة 1083هـ. وبقضائه على اضطرابات الشرق عاد إلى الداخل فتمكن من استعادة مراكش من يد أحمد بن محرز الذي تركها لائذا بالمرتفعات والهضاب.

في هذه الظروف كانت قبيلة عرب الودايا قد حلت بداخلية المغرب والتي دفع بها قحط المناطق الصحراوية الجنوبية الشرقية وندرة المطر وشح المياه إلى الالتجاء إلى انتجاع السهوب والسهول المغربية في مناطق سوس والحوز وغيرها. وتفرقت عشائرها وأفخاذها بين القبائل. وقصة أبي شفرة الودي ولقياه مع المولى إسماعيل قصة مشهورة بالتاريخ المغربي وهو الذي كلف من قبل المولى إسماعيل بجمع إخوانه الملتحقين بالقبائل الأخرى وجعلهم في خدمة الدولة، ومن هنا نعلم أن عرب

الودايا واستقرارهم بالبلاد وخدمتهم للدولة كانت باقتراح وأمر من المولى اسماعيل مثلها في ذلك مثل قبيلة شراقة التي كونها المولى الرشيد.

عمل المولى إسماعيل على القيام بنقل عرب الشبانات وزرارة من منطقة الحوز إلى منطقة أنكاد وكذلك عمد إلى إخراج عرب الشبانات الذين كانوا بفاس في خدمة أبي عبد الله الدريدي ونقلهم إلى أنكاد هادفا من وراء ذلك تعزيز كيان الدولة في تلك المناطق وتحويل تلك القبائل إلى أداة دفاع عن مصالح الدولة وأراضيها وحماية ثغورها والتصدي لبعض القبائل التي كانت تعمل لصالح الأتراك كبني يزناسن وغيرها، وفي نفس الوقت إبعاد الشبانات عن مواطنها التي طالما اعتزت بها إلا أن المولى إسماعيل لم ينقل إلى أنكاد من عشائر الشبانات إلا أخطرها، والواقع أنه جعل من الشبانات وعرب الودايا عمدة في جيشه حيث أسس لهما الحصون والقلاع في مختلف المناطق وأنيطت بهما مهمة حماية الطرق التجارية وتثبيت الأمن في ربوع البلاد.

كانت الشبانات وزرارة وأولاد جرار هي أهم القبائل التي أرسلت إلى سهل أنكاد ومنطقة وجدة، وبلغ فرسانها حوالي ألفين وخمسمائة فارس، وجعلت كلها تحت قيادة أبي البقاء العياشي ابن الزويعر الذي اتخذ من وجدة مركزا لقيادته، وفي هذه الأثناء أسست قلعة العيون وقلعة ملوية وأصبح الشبانات يهيمنون على سهل أنكاد وتريفة ويمنعون كل من عرفوا بمناوأة الدولة وممالأة الأتراك وإشاعة الفوضى من النزول إليه أو الحلول به.

لم يكتف المولى إسماعيل بكل ما ذكر بل أراد حسم الداء في موطنه فغزا بني يزناسن حتى طلبوا الأمان وأتوه طائعين، وفعل ذلك مثله مع عرب الأحلاف وحميان والمهاية وسقونة، وجرد الجميع من الخيل والسلاح وجعل جملتهم في القبائل الغارمة حتى لانت قناتهم وسلمت قيادتهم واستبدلوا نفرة البداوة وأنفتها بألفة وطاعة، وألزموا بأداء الكلف المخزنية.

قرر المولى إسماعيل أن يجعل من عرب الودايا جيشا نظاميا تابعا للدولة وأن يلحق بهم غيرهم من عرب أهل سوس وقسم ذلك الجيش إلا ثلاث فرق، ففرقة يطلق عليها اسم أهل سوس وهي مكونة من عرب أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وأغلبيتهم من عرب المعقل، والفرقة الثانية مكونة من المغافرة بما فيهم بكار وذوي بلال وذوي حسان عرب وادي نول وما وراءه، أما الفرقة الثالثة مكونة من عرب الودايا وهم في الأصل خؤولة المولى إسماعيل قبيلة ودي من عرب معقل التي كانت منتجعة تخوم الصحراء فعمل المولى اسماعيل على جمعها ولم شتاتها وتكوين الجيش منها وإثبات أفرادها وفرسانها في ديوان الجند وجعل منهم جماعة في فاس الجديد وأخرى في مكناسة الزيتون.

وقد ساعد عمل المولى إسماعيل على استقرار هذه القبائل وتركها لعادة الانتجاع بحثا عن الماء والكلإ ومنحها الأراضي الخصبة وتعويدها الزراعة وأداء الخدمة مع الكلف المخزنية مع سكناها القلاع والحصون وحملها شارة الدولة فآلت حياتها من خشونة البداوة إلى التحضر وخدمة الدولة.

وإذا ما رجعنا إلى سنة 1089هـ. فإننا سنجد أن المولى إسماعيل عمل على حماية عرب بني جابر في سهل تادلا من هجمات البربر بقايا أنصار الدلائيين ببعث كتيبة من الجند من أجل ذلك كما عمل على إخضاع قبائل بني معقل التي كانت تهيمن على حوض سوس وحوض ماسة، واتجهت قواته إلى الجنوب عبر واد درعة وأتته قبائل عرب الساحل والقبلة مؤدية البيعة، وشمل نفوذه الصحراء الجنوبية بصورة عامة بما في ذلك بني حسان الآتية من إقليم شنقيط التي تصاهر معها وفي الشمال عمل على إخضاع قبائل الخلط والطليق وغيرهما من قبائل أزغار.

والواقع أن عامة عرب تامسنا والغرب وتادلا وسايس أصبحوا كما قال الزياني كفلاحي مصر يحرثون ويحصدون ويعملون على تلبية حاجيات الدولة ويدفعون الأعشار والزكوات، فتمولت خزينة الدولة بذلك وامتلأت أمراسها بما كانوا ينتجونه من الحبوب وأهراؤها بما يقدمونه من الكرع والخيل، وانصرفوا عن عادة العيث وإثارة الفتن ولم يكن ذلك ليتم لولا سياسة المولى إسماعيل في انتزاع سلاح تلك القبائل.

أما عن النظام الجديد الذي أوجده المولى إسماعيل لتسيير الدولة، فقد تمثل في تعيين القواد والشيوخ لتلك القبائل العربية وغيرها بمراسيم وظهائر ومراقبة المسؤولين مع منح أولئك القواد إقطاعات خصبة حتى لا يشتكوا خصاصا وأصبح أولئك القواد والشيوخ يخضعون لإدارة مركزية على رأسها عامل العمال الذي أصبح يمثله على ويشى وبجانبه أحمد بن علي وابن الأشقر والقائد مرجان.

فترة ما بعد المولى إسماعيل

أما عن الفترة التي أعقبت حكم المولى إسماعيل فتعتبر من أخطر الفترات التي عرفها تاريخ الأمة المغربية وذلك نتيجة التنافس الحاصل بين أبناء المولى إسماعيل بعد وفاته على كرسي المملكة لمحاولة جيش البواخر من العبيد الإستيلاء على السلطة والسيطرة على بيت المال والعمل على مساومة أبناء المولى إسماعيل على كرسي الحكم وإلحاحهم على استرضائهم بالمال وابتزازهم من أجل ذلك فخلعوا من شاءوا وبايعوا كيف شاؤوا ولم يتركوا حرمة إلا انتهكوها ولا سيئة إلا اقترفوها ولم يكن ليخفف من غلوائهم إلا تلك المنافسة التي كانوا يلقونها من عرب الودايا وأهل سوس.

أما بقية القبائل ومنها الهلالية والمعقلية فإنها لما أحست بصراع السلطة وضيقها، عادت إلى سيرتها الأولى من حمل السلاح وركوب الخيل والقيام بأعمال التشغيب وخاصة بعدما رأت أن القبائل المخزنية كالودايا أصبحت تقوم بأعمال التخريب من الغارة على الأسواق، وإشاعة الفوضى والقيام بسلب الأموال وإزهاق الأرواح وكل ذلك فعلوه في فاس وغيرها مما أدى إلى قيام أهل فاس بإعلان الحرب على الودايا وإغلاق لأبواب المدينة بعد أن رفض المسؤولون الاستماع إلى شكواهم، فكان في ذلك بداية لعهد جديد من الفوضى والاضطراب وتذمير لحياة الأمن والاستقرار التي عرفتها البلاد في عهد المولى اسماعيل، وكانت هذه الأحداث قد بدأت على عهد المولى أحمد بن إسماعيل الذي لم يتجاوز حكمه سنة إلا قليلا إذ سرعان قام العبيد بخلعه ومبايعة أخيه عبد الملك.

كان العبيد قد كاتبوا أهل فاس من مكناسة في شأن بيعة المولى عبد الملك، وقاموا بتنفيذ إرادتهم وعندما تم الأمر لعبد الملك بدأ العبيد يطالبون بالمال ويضغطون عليه فعمد مولاي عبد الملك إلى مكاتبة قبائل العرب يحرضهم ويحضهم على اجتماع الكلمة والوقوف معه ضد العبيد. إلا أن العبيد تفطنوا لذلك واجتمعت كلمتهم على خلعه وإعادة مولاي أبي العباس أحمد إلى الحكم. ولم يتمكن أولئك العرب من جمع كلمتهم واستطاع مولاي أحمد دخول دار الملك بمكناس واضطر مولاي عبد الملك إلى الفرار إلى فاس التي لم يقدم أهلها حمايتهم له بل أسلموه وقبض عليه وسجن بمكناس وبها قتل. وكان مولاي أحمد قد انتقل إلى مكناس وبها مرض مرض الموت وبها قضى بعد أخيه بثلاث أيام في ظروف غامضة وترجع هذه الأحداث إلى سنة 1141هـ..

بعد وفاة مولاي أحمد بايع أهل فاس والعبيد مولاي عبد الله بن إسماعيل الذي كان مقيما بسجلماسة وأُتي به إلى فاس حيث تمت بيعته وكتب تلك البيعة الفقيه إدريس بن المهدي المشاط من علماء فاس وأعيانها إلا أن مولاي عبد الله لم يقم بفاس طويلا إذ سرعان ما انتقل عنها إلى مكناس.

كان مولاي عبد الله قد أصبح على خلاف مع أهل فاس بشأن تسليم القصبات التي أبى أهل فاس تسليمها له واستمر ذلك الخلاف طويلا بين الجانبين، وبعد هدمه لمدينة الرياض اضطرت الودايا إلى الالتحاق بإخوانهم بفاس، وكانت أول قبيلة بطش بها من العرب هي قبيلة عرب حجاوة حيث قتل منها حوالي مائتا رجل متهما إياهم بقطع الطرق.

واستمرت الاضطرابات بفاس وغيرها فيما بين سنة 1143هـ. إلى سنة 1145هـ. وفيها عرفت فاس مصائب وأهوالا، وفي سنة 1146هـ. بعث مولاي عبد الله بالعبيد وثلاثة ألف من عرب الودايا إلى برابرة فازاز فكانت الهزيمة على الجيش في البروج وأدخسان ونواحيهما، حيث جرد العبيد من المحيط والمخيط وفي 1147هـ. عزم العبيد على خلعه فترك مكناس ونزل على أخواله المغافرة من عرب وادي نول بسوس واستمرت إقامته في تلك النواحي حوالي ثلاث سنين.

ونفهم من هذا الوضع أن البلاد أصبحت تعيش الفوضى وانهيار الحكم المركزي، فالبربر معتصمين بجبالهم ولم تعد لهم طاعة يؤدنها وأصبحت المدن بين طاعة وعصيان كفاس ومكناس وغيرهما من المدن والعبيد والودايا متنافسين ومنغمسين في الضلالات وشمال البلاد استبد به أحمد بن علي الريفي ولي طنجة والخلاف بين أبناء إسماعيل مستمر كل ذلك أعطى الفرصة للعبيد في أن يتصرفوا على هواهم وسياسة مولاي عبد الله القائمة على البطش بالأعداء لم تأت بالنتائج المرجوة ودلت على سوء تدبير وعدم حسن تقدير.

ويبدو أن قبائل العرب ظلت في هذه الفترة بعيدة ومنصرفة عن الخوض في هذه الأحداث وجلة، عالمة أن العبيد وعرب الودايا أضحى الأمر بأيدهما وأن القتل مصير المناوئين مكتشفة عدم قدرتها على الوقوف في وجههما لفرقتها وعدم وحدتها ولما بينها من الضغائن والاحن والأحقاد.

وعندما بويع مولاي علي سنة 1147هـ من قبل العبيد وأعيان فاس وشرفائها سلك مسلك أهل السنة فلم يقبض من الناس إلا الزكوات والأعشار وكان عكس سابقه إذ كان موصوفا بالعدل والحلم ومع ذلك فقد استمر هو الآخر في خلاف مع أهل فاس كأخيه مولاي عبد الله حيث ثار سكانها وبطشوا بالوزير مسعود الروسي وأصحابه إلى أن تم الصلح بينهم وبين السلطان سنة 1148هـ إلا أنه لم يستطع إخضاع البربر من أيت أومالو وألحقت الهزيمة بالعبيد للمرة الثانية بمنطقة وادي العبيد ونواحيها وعاد السلطان إلى مكناس فألم العبيد عليه في المطالبة بالكسوة والمال والسلاح بعدما فقدوا كل ذلك أمام البربر.

لم يتمكن مولاي علي من الاستجابة للعبيد فأعلنوا بالتشغيب ومرضوا في الطاعة وبدأوا في التآمر على خلعه وظهر من جديد أنصار مولاي عبد الله من العبيد وعرب الودايا في فاس ومكناس وغيرها فاضطر مولاي علي إلى الانتقال إلى فاس إلا أن عرب الودايا لم يسمحوا له بدخولها وخاصة فاس الجديد فاضطر إلى ترك البلد والتحق في نهاية الأمر بعرب الأحلاف من نواحي تازا فأقام عندهم فأكرموه وصهروه وأصبح معرضا عن الملك واسبابه لعدة سنين إلى أن رجع إلى مكناس بأمر من أخيه مولاي عبد الله كما عند أكنسوس في الجيش العرمرم إلا أن وجوده في مكناس لم يدم طويلا لمناهضة العبيد له فانتقل إلى سجلماسة.

ومما يدل على اعراض العرب عن السياسة والخوض فيها في هذه الفترة أن عرب الأحلاف لم يعلنوا بدعوة مولاي علي خوفا من إقحام أنفسهم فيما لا طاقة لهم به ولربما أن مولاي علي لم تعد له رغبة في ذلك

مع ملاحظة أن القبيلة التي أصبح بين ظهرانها هي قبيلة سبق لها أن قامت بدعوة مولاي رشيد ومناصرته أثناء تأسيس الدولة وأثناء مناهضة أخيه مولاي محمد بن علي الشريف.

وفي عام 1149هـ كان مولاي عبد الله قد عاد من بلاد نول واستقر مدة بتادلا إلى أن وردت عليه بيعة العبيد والودايا وأهل فاس ومكناس والقبائل إلا أن بعض أهل فاس تأرجح في تلك البيعة بين مولاي عبد الله وأخيه مولاي محمد بن عربية وعندما مثل أمامه أهل فاس بقصبة أبي فكران بطش بأعيانهم ومثل ذلك فعل بأهل مكناس فانقلب من نجا منهم خائفا يترقب ويرمي من وراءه بما يستكره وينكر وتناجوا بينهم بالعصيان والخلع وفي أثنائها عاث عرب الودايا في الأسواق والأجنة وألحقوا بالناس أكبر الأضرار وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من متاع وميرية وكراع وخاصة في ناحية فاس فاجتمع الرأي عند الخاصة والعامة على مبايعة مولاي محمد بن عربية ومنابذة مولاي عبد الله.

والواقع أن المغرب لم يشاهد هذه الأحداث وحدها أثناء هذه الفترة بل شاهد أحداثا جساما هي أدهى وأمر، فبالإضافة إلى تلك الاضطرابات السياسية والعسكرية وعملية الإرهاق بالضرائب والابتزاز التي مارسها العبيد ومن إليهم ومصادرة الأموال والأعراض وعمت البلاد موجة من الجفاف فنتج عن ذلك نزول في قيمة المحصول الزراعي إلى أدنى حد له، وعرفت البلاد المجاعة وارتفاع الأسعار بشكل لم يعد معه أحد يستطيع سد حاجياته وكثرت بين الناس الاعتداءات واللصوصية وتفشت الأمراض وهلك الكثير من الناس

جوعا، وعمت الفتن (ورجع الناس كلهم لصوصا وقد مات من الجوع عدد لا يحصى) على حد تعبير صاحب كتاب الجيش العرمرم ج1 ص 177 ومثل هذا في نشر المثاني للقادري.

كانت سياسة محمد بن عربية قائمة على مصادرة الأموال ووضع المغارم على الأغنياء والفقراء على حد سواء وبالأخص على أهل فاس فاجتمعت المصائب وتراكمت على الناس الشدائد والأهوال واستمر عرب الودايا في التسلط على الرقاب حتى فر أهل التجارة واختفى أهل الحرف من المدن ولم يكن ذلك ليقع لولا تنافس الأمراء وغواية العبيد وافتياتهم واستحلاء عرب الودايا خُلو العرش من شخصية قوية تكبح جماحهم وتحد من نزواتهم وتهمز رقاب الجميع بمهاز الطاعة والإذعان.

في سنة 1151هـ عمل العبيد على خلع محمد بن عربية واستدعى أخوه المولى المستضيء من تافيلالت وبايعه أهل فاس ثم مكناس ووفدت عليه وفود القبائل إلا أنه لم يحد عن سيرة من سبقه وخاصة مع أهل فاس وتميز حكمه بالتضييق على الأشراف واستنزاف أموال الناس بالمغارم والمطاردات ونكب عرب بني حسن حيث قتل منهم حوالي ثمانين رجلا موجهاً إليهم تهمة الفساد في الأرض وأخرج أخاه زين العابدين من السجن وبعث به إلى تافيلالت بعد ضرب وإهانة غير مراع لآصرة الأخوة إلا أن العبيد عملوا على إنقاذه وهو في الطريق وصاحبوه إلى بني يزغة حيث تركوه تحت رعايتها.

لم يتردد العبيد هذه المرة في مبايعة مولاي عبد الله وخلع طاعة المولى المستضيء الذي اضطر إلى الالتحاق بأحمد الريفي ولي طنجة

وعاملها ومنها توجه عائدا إلى مراكش في وقت كان فيه مولاي عبد الله قد هيمن على فاس ومكناس ولم يجد المولى المستضيء في مراكش نصرة من عرب الحوز كالرحامنة وعبدة وغيرهم باستثناء عرب دكالة خؤولته. والواقع أن مولاي عبد الله ظل بقصبة وداي زم بالرغم من دخول فاس ومكناس في طاعته إلى سنة 1153هـ حيث دخل مكناس.

كان عرب الودايا معرضين عن مولاي عبد الله ولم يبايعوه في وقت التزم فيه عرب الغرب من بني مالك وسفيان وغيرهما طاعته باستثناء عرب بني حسن الذين كانوا قد قاموا بقتل أحمد الكميدي عامل مولاي عبد الله عليهم.

وفي سنة 1154هـ عمل العبيد على خلع طاعة مولاي عبد الله عليهم لأنهم رأوا فيه شخصية قوية لا تأبه لشأنهم ولا تسترضيهم فترك مكناس إلى فاس قبل أن يتمكنوا منه والتحق بفاس وأخذ المواثيق من عرب الودايا على محاربة العبيد والمستضيء وبينما كان أحمد الريفي قد أقنع عبيد مشرع الرملة بمبايعة زين العابدين فلم يجد مولاي عبد الله مندوحة من الالتجاء إلى الأطلس وترك فاس.

بالرغم من حصول مولاي زين العابدين على بيعة أحمد الريفي وعبيد مشرع الرملة ودخوله لمكناس إلا أن عرب الودايا بفاس وأهل المدينة لم يعترفوا به وفشل في إخضاعهم لانقسام العبيد على أنفسهم وعجزه عن دفع رواتبهم فما عتموا أن عادوا للتشغيب فكان في ذلك فرصة لمولاي عبد الله في أن يعود إلى فاس تناصره الودايا وأهل فاس مما اضطر زين العابدين إلى خلع نفسه فتلقى مولاي عبد الله البيعة من

عرب الغرب وسايس وقبائل البربر ولم يسع العبيد إلا الإتيان بطاعتهم لبيعتهم طوعا أو كرها.

أما عن الصراع بين مولاي عبد الله وأخيه المولى المستضيء فقد كان لأحمد الريفي دور خطير فيه وتعتبر سنة 1156هـ سنة صراع كبير بين الطرفين ففيها هاجمت جموع المولى المستضيء وأحمد الريفي نواحي فاس وكانت تلك الجموع قد تألفت من مزيج بشري جمع بين أهل الجبل والريف وعرب الخلط والطليق وبداوة وكانت هذه هي جموع أحمد الريفي بينما كانت جموع المولى المستضيء تضم عرب بني حسن ودكالة وغيرهم وقد قام المستضيء بمهاجمة مكناس بعرب حسن التي فعلت بأهلها الأفاعيل مما دفع بأهل مكناس إلى التحزب ضدهم والاستماتة في الدفاع حتى صدوا جموعهم وأفشلوا ذلك الهجوم وأثناءها حاول أحمد الريفي مباغتة عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع فانحازوا جميعهم إلى فاس وأرباضها.

في هذا الظرف شعر مولاي عبد الله بضعف موقفه فتوجه إلى برابرة آيت ادراسن داعيا إياهم لمناصرته ضد أخيه المستضيء وأحمد الريفي ثم عاد إلى فاس وعزم على مواجهة أخيه مهما كانت النتائج وعرف بسيط لارورات لقاء الطرفين حيث زحف عرب الودايا والحياينة وشراقة وأولاد جامع تساندهم البربر ويقودهم مولاي محمد بن عبد الله إلى جموع المستضيء وأحمد الريفي ولم يحضر السلطان ذلك اللقاء وفي هذه المعركة تم النصر لمولاي عبد الله على غريمه وكانت هذه الأحداث في شهر محرم من سنة 1156هـ.

ونستنتج من هذا أن عادة الاعتماد على استنفار القبائل قد عادت وخاصة منها تلك القبائل العربية بعد أن ظلت تلك القبائل بعيدة لمدة غير قصيرة عن القيام بأي دور سياسي أو عسكري نتيجة هيمنة عبيد البخاري والودايا على الأمر إلا أن أغلبية هذه القبائل قد أصبحت طيعة ولانت قناتها لحكومة المخزن ولم تعد تحركها نزوات العصبية بقدر ما تحركها الحوافز المادية وأصبحت ترى أن مصالحها مرتبطة بحكومة المخزن وبمدى خدمتها لذلك الجهاز وإخلاصها له مما سيجعل حكومة المخزن تعتمدها وتجعل فيها الباشوات والقواد وخدام الدولة وتمنح لبعضها المناصب الخطيرة في الدولة وتعين لهذه القبائل من الشيوخ والقواد ما ترى فيه مصلحة الدولة والأمن والخزينة العامة أو بيت المال.

لم يكن لتلك الهزيمة التي تلقاها أحمد الريفي على وادي ورغة تأثير كبير عليه أو تقنعه بالتخلي عن مشروعاته بل دفعه ذلك إلى التحدي والتمادي في عمله والإصرار على مواقفه والاستمرار في مناصرة المستضيء ومحاولة إعادة الكرة لما عساه يمكن أن يحققه من ورائها غير أن مولاي عبد الله كان مترصدا لحركاته فعندما تعين بها كان أحمد الريفي عازما عليه بعث إلى القبائل يستنفرها فكتب إلى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع وعرب الغرب من سفيان وبني مالك كما استجاش بأهل فاس وعرب الودايا وزرارة وجعل وجهته ما وراء شمال سبو ودعا البربر الالتحاق به وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة 1156هـ وتميزت هذه الحملة بتعين قادة الجيش وتنظيم صفوف الجيش والمتطوعة من العرب بالقيادات وتعين المهمات والإلحاح على الالتزام بالتعليمات.

أما الباشا أحمد بن علي فإنه زحف بذلك الخليط البشري من قبائل الشمال كعرب الخلط والطليق والبداوة والبدور ورياح وكلهم من بلاد الهبط بالإضافة إلى قبائل جبالة وغمارة والريف واتخذ من القصر الكبير ملتقى لتلك الجموع ولم ينتظر وصول المولى المستضيء بجموعه فاستعجل اللقاء بينه وبين المولى عبد الله فكان اللقاء بين السلطان وأحمد بن علي الريفي على وادي لوكس وانتهت تلك المعركة بتل المنزه المشرف على مدينة القصر الكبير فكان في ذلك نصر مؤزر لمولاي عبد الله وفقد أحمد الريفي حياته في تلك المعركة وتساقطت أحلافه هو وصحبه تساقط أوراق الخريف وجرفتها رياح عاتية قضى بها القدر وذلك سنة 1156هـ.

وبالرغم من قيام المستضيء بجمع قواته من العبيد وعرب بني حسن ومهاجمة مولاي عبد الله بدار العباس قرب القصر فالهزيمة ألحقت به واستمر القتل في عرب بني حسن حتى هلك منهم ما ينيف عن ألف وعاد السلطان إلى فاس وأقام بدار الدبيبغ.

وفي سنة 1157هـ عزم مولاي عبد الله على القضاء على حركة المستضيء وأنصاره من بني حسن فخرج من فاس واستجاش بالعبيد وعرب الودايا والحياينة وأولاد جامع وشراقة وعرب الغرب وهاجم بني حسن وحال بينها وبين المرتفعات حتى لا تلذ بها وجاست الخيل في حللها فما وسع عرب بني حسن إلا الخضوع وطلب العفو ولم يفد المستضيء إلا اللجوء إلى أخواله في دكالة.

إن انتقال المولى المستضيء إلى دكالة دفع مولاي عبد الله إلى شن الغارات على عرب دكالة واتخذ من قصبة أبي الأعوان مركزا لتسير

العمليات في وقت كان المستضيء قد انتقل إلى نواحي دمنات والسراغنة وعندما ضايقته تلك الجموع المناصرة لمولاي عبد الله التجأ هو وأنصاره من عرب دكالة إلى جبال مسفيوة وكان لعرب الرحامنة ذات الأصل المعقلي وعرب زمران وأهل الحوز دور مهم في محاصرة المستضيء وأهل مسفيوة وكان لخطة التخريب لحصونهم ومزارعهم أثر إيجابي في دفعهم إلى التخلي عن مناصرة المولى المستضيء وطلبهم العفو من مولاي عبد الله سواء من قبل المسفويين أو من قبل دكالة والتي ترك الجيش أرضها في تامسنا بلاقع لا زرع ولا ضرع.

أما المستضيء فقد نجح في العودة إلى طنجة وفحصها بعد أن آيس من مناصرة أهل مراكش وأهل الحوز إلا أنه سيلاقي مشاكل كبيرة خلال إقامته بها.

أما عن مولاي محمد بن عبد الله الذي تولى في هذه الأثناء خلافة أبيه في هذه المناطق الجنوبية من البلاد فإنه عندما حاول الإقامة بمراكش عارضته قبيلة الرحامنة حفظا لمركزها ونفوذها في المنطقة فتحول عنها إلى مدينة أسفي التي وجد من أهلها ترحيبا ومعاضدة وعملت قبيلة عرب عبدة وقبيلة بن أحمد على مناصرته فاتخذ منها قوة وعصبة واعتزت القبيلتان بخدمته فعظم شأنهما وازدهرت أسفي بوجوده وتنافس التجار من مختلف العناصر في تقديم الهدايا له والتحق بخدمته عرب الشياظمة وتبعتهم في ذلك قبيلة حاحة المجاورة لهم من البربر فلم يسع قبيلة الرحامنة إلا مراجعة موقفها وتقديم اعتذارها وإلحاحها عليه في العودة إلى مراكش فركب في ألف وخمسمائة من عرب عبدة وأحمر واتباعه

ودخل مراكش واتخذها عاصمة ولم يكد مولاي محمد يستقر بها حتى تواردت البيعة من قبائل الحوز والدير وتسارعت إلى القدوم عليه واجتمع في جيشه العبيد وعرب الرحامنة وعبدة وأحمر وأهل الحوز وكون جيشا قويا استطاع به أن يرغم أهل سوس على الخضوع حيث دخل تارودانت وأكادير سنة 1165هـ وقضى على زعيمها المعروف بالطالب صالح.

لم يكتف مولاي محمد بما حققه في الجنوب بل عمد إلى المناطق الوسطى والشمالية لإخضاعها حيث عمد إلى عرب الشاوية وقضى على رؤوس الفتنة في نفس السنة واتجه بعدها إلى بلاد الهبط ودخل قصر كتامة فدانت له تلك المناطق من عرب الخلط وطليق وغيرها.

كان المولى المستضيء قد ترك مراكش منذ سنة 1152هـ وانتقل إلى طنجة وفحصها غير أنه لم يمض بها وقتا طويلا حتى ساءت علاقته مع أهل الريف فنبذوا طاعته وعزموا على تسليمه إلى مولاي عبد الله ثم إن مولاي عبد الله لما بلغه ما آل إليه أمره عفا عنه بعد مراجعة بينهما واستقر المستضيء بأصيلا بأمر من أخيه مستفيدا من مرساها في وسق الزرع وأخذ مستفادها فلما علم مولاي عبد الله أنه أثرى وسلح وكثر تابعه أمر ابنه مولاي محمد بازعاجه عنها فقدم ابن عمه مولاي إدريس لهذه المهمة ومعه القائد عبد الله السفياني من ألف فارس من قبيلته عرب سفيان ونتيجة للحصار الذي ضرب على المستضيء وفشل المفاوضات اضطر المولى المستضيء إلى ترك أصيلا والتنازل عن كل شيء كان بحوزته وانتقل إلى فاس ولم يستمر بها طويلا حتى صدر الأمر بنقله إلى تافيلالت

بأمر من أخيه المولى عبد الله وذلك سنة 1170هـ وظل المستضيء مقيما بتافيلالت منذ سنة 1170هـ إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة 1179هـ.

لم تكن مشكلة المولى المستضيء وحدها التي واجهت مولاي عبد الله في هذه الفترة بل كانت هناك مشكلة البربر التي تمت فيها زعامات ذات طموحات غامضة ونوايا مستراب في مقاصدها وكان مولاي عبد الله يرى أن البربر والعبيد يشكلان خطرا على الدولة مالم يتم التحكم فيهما والقضاء على مثيري الفتنة فيهما ونمي إلى العبيد أن السلطان يريد ضربهم بالبربر وضرب البربر بهم. بالاضافة إلى أن زعيم البربر وكبيرهم آنذاك محمد واعزيز أحس بما شعر به العبيد وعزم على التشغيب معهم عندما عزموا على ذلك فعمل على إغراء أهل فاس وعرب الغرب من بني مالك وسفيان وعرب الحياينة على الانتقاض على السلطان والدخول في حلف معه ضده. وبالرغم من كل ما حصل فإن حملتهم ضد السلطان بدار الدبيغ وفاس الجديد قد باءت بالفشل فعندما تقدم حبيب المالكي بجموعه إلى دار الدبيغ وفاس الجديد أغارت البربر على محلته فعلمت العرب بغدر البربر بهم فرجعت إلى مواطنها مغادرة الميدان كما عادت البربر إلى أكنان جبالها ونجا السلطان من مكر الجميع.

ويبدو أن المولى عبد الله كان قد تمكن بوسيلة ما من التقريب بين العرب والبربر والعبيد ولم يقع في الشراك الذي نصب له واستمر الحصار مفروضا على أهل فاس يأكل ميريتهم ويضعف من قوتهم ولم تفدهم حيلة لأن الودايا ظلوا على وفائهم لمولاي عبد الله.

رفع عرب الغرب الحصار الذي ضربوه على دار الدبيغ ويمموا مواطنهم إلا أنهم أثناء رجوعهم إلى تلك المواطن هاجموا في طريقهم عرب بني حسن، ولم يجد هؤلاء بدا من رفع الشكاية بهم إلى مولاي عبد الله الذي بعث بالجيش لتأديبهم. فأدى ذلك إلى لجوء هؤلاء العرب من بني مالك وسفيان إلى مدينة العرائش قصد الاحتماء والاعتصام بها. أما الجيش فاستمر في محاصرتهم وتضييق الخناق عليهم إلى أن صدر عليهم عفو السلطان، فوفدت جماعة منهم عليه بفاس متنصلين عما حدث ومقدمين الهدايا فقبل منهم ذلك وعين كبيرهم حبيب المالكي قائدا على جل قبائل الغرب وبلاد الهبط. وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1160هـ.

يبدو أن تحالف البربر قد تردى بعد موت محمد واعزيز وخاصة بعد وقوع الخلاف بين قبائلهم وظهر ذلك واضحا عندما قامت آيت ادرسن بمهاجمة قبيلة كروان واستباحتها ولم تجد كروان من نصير لها سوى عرب الودايا الذين خرجوا من فاس لإنقاذها والأخذ لها بثأرها من أيت ادرسن وكان ذلك أول تحالف بين كروان والودايا وذلك سنة 1168هـ غير أن تلك الحرب استمرت إلى سنة 1170هـ حيث كانت الهزيمة على أيت ادراسن ببسيط سايس فالتجأت هذه الأخيرة إلى قبيلة عرب شراقة لائذة بها والتي منحتها حمايتها.

كانت هذه الأحداث تمثل الفصول الأخيرة من الملحمة التي عاشها المولى عبد الله وكانت أحداثها الجسام قد أنهكت قوى المولى عبد الله والتي تمثلت في الصراع الطويل من أجل الحصول على موروث المولى اسماعيل في الملك والحكم بين الأبناء وفي الدور الذي لعبه العبيد والودايا والقبائل وبالرغم مما أبداه المولى عبد الله من تجلد وصبر

وصمود فإنه اضطر في الأخير إلى التفويض لابنه مولاي محمد الابن الأمثل له في تسيير الأمور وأخلد إلى الراحة بدار الدبيبغ أو بفاس الجديد بقية حياته لا يجرأ أحد القدوم عليه لما يعرفونه من بطشه وقوة شكيمته.

بيعة مولاي محمد بن عبد الله

في سنة 1171هـ توفي مولاي عبد الله فبويع مولاي محمد البيعة التامة من قبل العلماء والأشراف ورجال الدولة بمراكش، ومنها انتقل إلى فاس حيث جددت له البيعة من قبل علمائها وأعيانها، ودخل دار الدبيبغ ووفدت عليه وفود القبائل وخاصة من عرب الغرب مقدمين الطاعة مع الهدايا والتحف. والواقع أن مولاي محمد كان من الناحية العملية ملكا قبل تلك البيعة لأنه كان قد أصبح المتصرف الحقيقي في المملكة في حياة أبيه الأخيرة سائسا لشؤون الحكم متمرسا بها.

في سنة 1173هـ بدأ المولى محمد يتفقد أحوال الرعية في مختلف الجهات فبدأ رحلته نحو شمال المملكة ثم عاد إلى الرباط وعزم على تركيز الحكم وتثبيته والقضاء على ظاهرة التسيب التي عرفتها البلاد وافتيات المتنفذين من العبيد والودايا وغيرهم فعمل على القضاء على نفوذ عرب الودايا المسيطرين على قصبات فاس وحصونها واتخذ من تمادي الودايا في محاربة آيت ادراسن مناصرة منهم لقبيلة جروان ذريعة لذلك إذ كان عملهم افتياتا على الدولة وتم له ذلك بعد رجوعه من مراكش إلى فاس. ويبدو أن عمل الودايا كان بغير إذن من السلطان وتصرف يدل على الاعتداد بالنفس وشعور بعدم الحاجة إلى استصدار

الأمر السلطاني فيما قدموا عليه فعمل المولى محمد على القبض على رؤسائهم وتشريد أكثرهم وإخراجهم من القلاع والحصون وإسقاط الكثير منهم من الخدمة والجيش ولم يحتفظ إلا بالقليل منهم ممن ثبتت سلامة طويته ونصحه، مع ترحيل هؤلاء إلى مكناس. وهكذا فقدت عرب الودايا امتيازاتها القديمة بعد طول عز ودالة على الدولة واستطالة على الآخرين.

كانت الأحوال في سنة 1173هـ لا تزال مضطربة وخاصة في منطقة تامسنا حيث عرفت قيام قبيلة عرب الشاوية بإثارة الشغب والاضطرابات فقرر السلطان القيام بالتوجه إلى تلك المنطقة والقضاء على مثيري الفتن فيها والبعث برؤوس الفتنة منها إلى السجون ثم انتقل إلى سايس وناحية فاس ليواجه حالة شبيهة بتلك التي توجه من أجلها إلى الشاوية فعرب الحياينة طالما أظهروا تعنتا وتمردا وضايقوا من جاورهم من القبائل والمدن فعمل على مهاجمتهم والفتك بعصبة الشر فيهم والرجوع إلى مكناس وبذلك تمكن من تحقيق الأمن والاستقرار الضروريين لحياة الدول.

عرفت البلاد في هذه الفترة الاستقرار وكفت القبائل عن إثارة المشاكل في وجه الدولة وأذعنت للسلطة المركزية وقبلت بدفع الزكوات والأعشار عن طواعية وامتثال ولم ترفض ما وظف عليها وعلى غيرها من الضرائب المباشرة وغير المباشرة كالمكوس التي فرضت على مختلف البضائع الواردة على الأسواق والتي أفتى العلماء بجوازها تقوية للدولة ولسد حاجياتها وظهر ذلك واضحا في قبول عرب الغرب والحياينة والأحلاف وقبائل الحوز بذلك من غير أن يثيروا شغبا أو اعتراضا.

كان لسياسة الجهاد البحري التي أراد المولى محمد بن عبد الله إحياءها ردود فعل قوية من قبل الأوروبيين فعودة الأسطول المغربي إلى الظهور وملاحقة السفن الأوروبية والإستيلاء على بعضها كما تم لبعض قطع الأسطول التجاري الفرنسي كل ذلك دفع الأسطول الفرنسي إلى القيام بمهاجمة مدن الساحل المغربي حيث هوجمت سلا والعرائش سنة 1179هـ بل حاول الأسطول الفرنسي الإستيلاء على مدينة العرائش لولا ذلك التحالف الذي حصل بين أهل الجبل من بني كرفط وأهل الساحل وعرب الغرب من بني مالك وسفيان والخلط بقيادة حبيب المالكي في صد ذلك الهجوم والقضاء على أغلبية صفته ومراكبه وأسر الكثير من مهاجميه وتلك مأثورة كانت لعرب الغرب والهبط وأهل الجبل واستمر وجود أولئك الأسرى بيد الدولة إلى أن تم افتداؤهم بعد الوساطة الإسبانية.

كانت أسوار كل من مدينة سلا والعرائش قد تأثرت بشكل كبير نتيجة القصف القوي الذي تعرضت له من قبل الأسطول الفرنسي فاحتاج مولاي محمد بن عبد الله إلى العناية بذلك وإعادة ما تهدم من الأبراج وخاصة في العرائش التي جدد صقالتها وملأها جندا ومدافع وطبجية ومهارس وبحرية وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1179هـ الموافق السنة 1728م.

يمكن القول أن مولاي محمد بن عبد الله هو أول من فكر من ملوك الدولة العلوية في إنشاء جيش انكشاري على غرار ما كان في الدولة العثمانية حيث جمع من قبائل الحوز من العرب وغيرهم عددا مهما

وجعل قيادتهم عبد النبي المنبهي وبلغت أعداد ذلك الجيش حوالي 5500 إلا أن ذلك الجيش لم تكتب له الاستمرارية إذ سرعان ما انحلت تلك الفرق العسكرية لانعدام ضبطها وعدم اعتياد أفرادها على تلك الأنظمة ولعيثها في أموال الناس وإلحاق الضرر بهم وتكليفهم بما لا يطيقون فكثرت الشكايات بهم فكان مصير أفراد هذه الفرق الإسقاط من الجندية وإعادتهم إلى الحقول وجعلهم في القبائل الغارمة.

ومن أحداث سنة 1189هـ قيام العبيد بمكناسة بخلع طاعة مولاي محمد بن عبد الله ومبايعة ابنه مولاي اليزيد ومسايرة بعض القبائل من البربر المجاورين لمكناس لهم وبعض قبائل سايس والغرب من العرب ولم يمتنع عن تلك البيعة إلا عرب الودايا وبعض البربر كآيت ادراسن وجروان غير أن تلك البيعة لم تتم وانهزم العبيد ومن معهم من أنصار مولاي اليزيد أمام الودايا وآيت إدراسن وجروان واستسلم مولاي اليزيد أمام أبيه مولاي محمد بزرهون حيث تشفع له الأشراف الأدارسة عند السلطان فقبل شفاعتهم وعفى عنه.

وإذا ما رجعنا إلى سنة 1188هـ فإننا سنجد أن المولى محمد قد أحدث تغييرا في العمال والقواد لبعض القبائل مما يدل على عناية السلطان واهتمامه بشؤون الرعية وعلى أن هذه القبائل أصبحت تخضع الخضوع الكامل لحكومة المخزن فقد قام المولى محمد بعزل القائد محمد بن أحمد الدكالي البوزراري عن قبائل تامسنا ولم يترك له إلا إخوانه من دكالة كما عين محمد الصغير على قبيلة عرب السراغنة وعلى أهل تادلا صالح بن الراضي الورديغي وعلى أولاد رزق من الميزاب القائد مول

الطابع وعلى أولاد أبي عطية عمر بن أبي سلهام المزابي وكل ذلك استجابة لمطالب رفعت واهتماما بقضايا استوجبت رعاية وعناية (راجع الجيش العرمرم).

والواقع أن مولاي محمد بن عبد الله بعمله هذا قد رفع عن تلك القبائل استبداد أولئك القواد وابتزازهم للرعية وما قد أصاب أو يصيب الناس من حيف أوجور من بعض المسؤولين آنذاك والذين يحلوا لهم الإثراء على حساب الضعفاء من أبناء القبائل واستغلال النفوذ.

عرف المغرب في الفترة ما بين عامي 1190-1196هـ أزمة اقتصادية واجتماعية وذلك نتيجة للجفاف الذي أصاب البلاد في هذه الفترة مما دفع ببعض القبائل إلى القيام بعدة اضطرابات ومهاجمة بعضها البعض وقيامها بقطع الطرق ومصادرة القوافل والإغارة على المدن المجاورة من ذلك بعض ما فعلته بعض قبائل الحوز كقبيلة أولاد أبي السبع التي عاثت في تلك المناطق وتسلطت على غيرها مدة غير قصيرة. فلما استقرت الأحوال وعادت للدولة قوتها بعد سنة 1196هـ عمل المولى محمد بن عبد الله على توجيه الجيش إلى تلك المناطق قصد إيقاف الاضطرابات بها والقضاء على مثيري الفتنة من أبناء قبيلة أولاد أبي السبع فانتهبت حللها وطردت من موطنها وغربت عنها إلى سوس واستمر الدفع بها إلى ما وراء درعة في اتجاه الجنوب كما عمل على القضاء على ثورة محمد والحاج اليموري الذي أكثر من الإغارة على عرب الغرب في المناطق الشمالية. واستشرى داء قبيلته على غيرها فعمل جيش السلطان على ترصده وإلقاء القبض عليه وإعدامه وذلك سنة 1197هـ.

وإذا ما أردنا أن نحلل أوضاع هذه القبائل وعلاقتها مع غيرها ومع حكومة المخزن فإننا سنجد أن هذه القبائل كثيرا ما دفعتها ظروف مختلفة من الحاجة الاقتصادية إلى القيام بمهاجمة غيرها ومحاولة التوسع على حساب غيرها من لقبائل المجاورة لها وقد ظهر ذلك واضحا في قيام بعض قبائل الأطلس المتوسط بمهاجمة قبائل سايس والغرب رغبة في الحصول على مرية أو أراضي خصبة ولم يكن ذلك ليمثل صراعا حقيقيا بين البربر والعرب بقدر ما كان يمثل حاجة اقتصادية ملحة لذا كل قبيلة أصابها فقر وعوز إذ لم تكن تلك الصراعات إلا صورة وتعبيرا عن تلك الضرورة الاقتصادية والمعاشية فصراع قبيلة جروان وأيت ادراسن البربريتين وصراع قبيلة أومالو مع غيرها من قبائل البربر المجاورة وصراعات عرب سايس والأحلاف وبني حسن وقبائل سفيان وبني مالك وأولاد أبي السباع مع غيرها من القبائل لم يكن يمثل صراعا عنصريا بقدر ما كان يمثل صراعات ذات طبيعة اقتصادية أملتها ظروف سيئة وساعد على ذلك غياب سلطة قوية مركزية قادرة على الهيمنة على تلك القبائل ومراقبة تحركاتها بل أننا كثيرا ما كنا نجد شيوخ تلك القبائل وقوادها يدخلون في صراع دائم فيما بينهم تحدهم نزوات غير قليلة من روح القهر والتسلط وعنجهية ضاربة جذورها في أعماق بعيدة من الأنانية والاستكبار مع صلف البداوة وخشونتها.

كما نفهم مما استقرأناه أن كثيرا من القبائل انتقلت من موطنها الأصلية إلى غيرها دفعها إلى ذلك ظروف من الصراع وخوف الإبادة وأخذ الثأر حتى اضطر المخزن إلى الاستمرار في الدفع ببعض القبائل الشرسة إلى القفر دفعا لسلبياتها أو إلى نقلها من الغرب إلى الشرق ومن

الشمال إلى الجنوب ومن السهول إلى الهضاب والمرتفعات وأحيانا يكون التجاؤها إلى ذلك رغبة منها في الإبقاء على نفسها والابتعاد عن مواطن الصراع أو فرارا من نزول العقوبات الجزرية والجزائية بها من قبل سلطات المخزن.

وهكذا رأينا قبائل عرب أولاد أبي السبع تلتحق بالصحراء وبعض أولاد دليم والتكنة أو عادت إليها بعد مدة طويلة وكذلك بعض قبائل بربر زمور وعرب المناصير وغيرهم في حين أن بعض القبائل ظلت في شرق البلاد تنتقل بين المغرب والجزائر في ازدواجية من حيث ولائها بين الأتراك والمخزن وكثيرا ما استغلت من قبل الأتراك وديات الجزائر في إثارة المشاكل والتشغيب في منطقة بني يزناسن وأنجاد وتريفة. لولا حزم حكومة المخزن في القضاء على مثيري الفتن وحسم الداء في موطنه قبل استشرائه بما كان يرسله من قوات وقبائل الدولة لمواجهة تلك القبائل المزدوجة الولاء أو بعض ذوي التطلعات المغرضة من أبناء تلك القبائل ولولا ذلك لفقد المغرب جزءا من أراضيه.

تعتبر مدة حكم مولاي محمد بن عبد الله من أحسن فترات الاستقرار التي عرفتها البلاد ويعود ذلك إلى قوة شخصيته وشدة حزمه، وكان لوفاته سنة 1204هـ تأثير خطير على الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد ودفن بالرباط وبويع ابنه مولاي اليزيد وهو لا يزال مقيما بالحرم المشيشي من جبل العلم بالشمال حيث بايعه الأشراف العلميون وأهل الجبل وبانتقاله إلى تطوان توافدت عليه الوفود من مختلف الأنحاء مقدمة بيعتها وتوجه منها إلى العرائش ثم زرهون حيث قدمت عليه

وفود الصحراء الشرقية يقودها مولاي سليمان من تافيلالت ومعها قبائل البربر والعرب والحوز كما وفد عليه أهل مراكش مقدمين بيعتهم ومعهم أهل سوس وبذلك تمت البيعة لمولاي اليزيد بصورة كاملة وشرعية.

لم يلتفت مولاي اليزيد إلى مواقف عرب الوداية منه حيث كانوا يقفون أيام أبيه موقف المناوئ لطموحاته واكتفى بأخذ بيعتهم ونقلهم من مكناسة إلى فاس الجديد ويبدو أنه كان ميالا إلى برابرة فازاز وخاصة جروان التي طالما شجعته على المضي في تحقيق مشروعاته زمن أبيه على خلاف ما كان يجده من قبل عرب الوداية وغيرهم.

لا غرو أن مولاي اليزيد كان مغرما بالجهاد وعازما على تحرير بقايا الثغور المحتلة من قبل الإسبان ويريد أن يضع حدا للتواجد الأجنبي بالبلاد فقرر محاصرة سبتة ومهاجمتها رغبة في تحريرها ولم يكتف باستدعاء الجيش بل استنفر المغاربة إلى تكوين فرق المتطوعة لهذه الغاية حيث توافدت عليه المتطوعة من مختلف القبائل من البربر والعرب إلا قبائل الحوز فإنها تقاعست عن ذلك مما جعل مولاي اليزيد يضطر إلى رفع الحصار عن سبتة بعدما علم أن قبائل الحوز مثل الرحامنة وعبدة ودكالة عملت على تشجيع مولاي هشام بن محمد على أخذ البيعة لنفسه والخروج عن طاعة أخيه.

يبدو أن دوافع قبائل عرب الحوز للقيام بمثل هذا كانت متباينة فالرحامنة معرفون بترددهم في الولاء لمن لم يسترضهم بالمال والحظوة وكانوا يرون في تقديم المولى اليزيد لغيرهم من القبائل في العطاء استهانة

وإجحافا بهم وخاصة أنهم كانوا يرون في أنفسهم أنهم أهل النجدة وأولى بالعطاء نظرا لكون أرضهم غير معطاء ويغلب عليها الجذب كما كانت ترى أنها أولى من غيرها بالتقديم لأنها كانت ناصرة أبيه وعضده بينما كانت دكالة لا تزال بها آثار احن مما حاق بها من مصائب وأهوال نتيجة مناصرتها لمولاي المستضيء من قبل مولاي عبد الله وأنصاره وعلى رأسهم مولاي محمد إذ لا تزال بها سخيمة من ضغن إلا أن عرب الحوز لم يكونوا وحدهم الذين نكثوا بيعة مولاي اليزيد بل كانت تشاركهم في ذلك مراكش وإلا كيف نفسر بطشه بالكثير منهم عند دخوله إليها والتي لم يكن دخولها في الواقع إلا عنوة.

بالرغم من كون المعركة التي جرت بين مولاي اليزيد ومولاي هشام بتازكورت خارج مراكش والتي أسفرت عن هزيمة قبائل الحوز أمام أنصار مولاي اليزيد فإن إصابة مولاي اليزيد في المعركة انتهت بوفاته بعد نقله إلى مراكش وذلك سنة 1206هـ وبها دفن بقبور الأشراف.

صراع الإخوة هشام وسليمان

كان لوفاة اليزيد أثر في فتح باب جديد للصراع بين أبناء مولاي محمد بن عبد الله فمولاي هشام سبق وأن بايعته قبائل الحوز واتخذ من مدينة أسفي مركزا وعاصمة مؤقتة يناصره فيها عاملها القائد عبد الرحمن بن ناصر العبدي بينما قامت بلاد الهبط بمبايعة مولاي سلامة كما يسميه أو يضبطه الضعيف أو مسلمة كما هو عند الناصري والذي كان خليفة لأخيه وقد أخذ البيعة لنفسه وبايعته قبائل عرب الغرب وعرب الخلط والطليق وسايرتها في ذلك القبائل الجبلية في الشمال إلا أن

الناصري في الاستقصاء يرى أنه بويع بعد وفاة أخيه في حين يرى الضعيف أنه دعا لنفسه في حياة أخيه وعلى أية حال فإن بيعة مولاي سلامة لم تظهر إلا بعد وفاة أخيه.

أما أهل فاس فقد أسرعوا إلى مبايعة مولاي سليمان حيث بايعه علماؤها وأعيانها البيعة التامة في ضريح مولاي إدريس وتبعهم في ذلك عرب الودايا وأهل مكناس والبربر وعرب بني حسن وبعض عرب الغرب.

ويظهر أن مولاي مسلمة حاول تثبيت ملكه عن طريق الاستعانة ببربر آيت يمور من الأطلس المتوسط بالإضافة إلى عرب بلاد الهبط إلا أن مولاي سليمان سرعان ما ألحق به وبجموعه على واد سبو الهزيمة بموقع يعرف بالحجر الواقف تناصره عرب الودايا وشراقة وأهل فاس وتواصلت الهزائم على مولاي مسلمة في قبيلة عرب الحياينة وتخلت عنه قبائل عرب الخلط والطليق وانتهت به الهزائم إلى اللجوء إلى تلمسان عند الأتراك.

ولم يكد مولاي سليمان يتخلص من مشكلة أخيه مولاي مسلمة حتى واجهته مشكلة قيام عرب أنكاد بالشرق بإثارة الاضطرابات وإلحاق الأضرار بغيرها ومصادرتها للقوافل التجارية بل التعرض لركب الحجاج بالإذاية والنهب فاضطر مولاي سليمان إلى إرسال حملة تأديبية بقيادة أبي القاسم الزياني إلا أن تلك الحملة لم تغن شيئا وبددتها جموع الأعراب وانتهبت محلة الجيش ولم ينج أبو القاسم الزياني إلا بجريعة الذقن كما يقال وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1206هـ.

عرف مولاي سليمان مشكلة التحكم في الجنوب الذي ظل خارجا عن سلطته فعمل على إرسال أخيه مولاي الطيب إلى منطقة الحوز وتامسنا وابتدأ بقبيلة الشاوية إلا أن خلافات القواد في جيشه وتنافسهم جر الهزيمة عليه وفقد الكثير من الأمتعة والسلاح في تلك المعركة لصالح العدو وكان ذلك سنة 1207هـ.

ويبدو أن أهل الحوز ظلوا مظاهرين لمولاي هشام قائمين بدعوته ويمكن القول إن المغرب في هذه الفترة كان مقسما بين مولاي هشام ومولاي سليمان وكانت قبائل عرب دكالة وعبدة وأحمر والشياظمة والرحامنة وبرابرة حاحة طيلة تلك المدة على طاعة وولاء لمولاي هشام إلا أن نكثت تلك البيعة قبيلة الرحامنة على أثر اغتيال قائدها عبد الله بن محمد الرحماني وكان ذلك بداية تفكك دولة مولاي هشام التي اعتمدت على مناصرة عرب الحوز وتامسنا.

لم تتردد قبيلة عرب الرحامنة في الإعلان عن خلع طاعة مولاي هشام والمناداة بأخيه مولاي الحسين بن محمد سلطانا عليها ومهاجمة مراكش ومفاجأة مولاي هشام الذي اضطر إلى مغادرة مراكش والتحق بأسفي حيث وجد في وزيره عبد الرحمن بن ناصر خير نصير والذي استمر في وفائه له منذ أن أعطاه صفقة لبيعته.

إلا أن قبائل الحوز انقسمت على نفسها منذ هذا التاريخ فإذا كانت قبائل عبدة ودكالة وأحمر قد استمرت في وفائها لمولاي هشام فإن عرب الرحامنة وزمران وأهل مراكش ظلت تدين بولائها لمولاي حسين بن محمد وهكذا أصبح المغرب سنة 1209هـ مقسما إلى ثلاث ممالك

وثلاث عواصم هي فاس ومراكش وأسفي وشاهدت منطقة جنوب أم الربيع صراعا دمويا طويلا أزهقت خلاله الأرواح وقدرت بالألوف وضجر الناس من تلك الأهوال والمآسي.

أما منطقة الشاوية أو الضفة اليمنى لأم الربيع من بلاد تامسنا فقد كانت خارجة عن طاعة الجميع إذ كان مولاي عبد الملك بن إدريس مستبدا بها وتسانده قبائلها من عرب أولاد برزق وأولاد بوعيطة من أولاد حريز وطمع هو الآخر في عرش البلاد.

عمل تواصل الاضطرابات في تلك المناطق على إشاعة عدم الاستقرار وساهم في تعطيل الإنتاج وتوزيع الفقر على مختلف الفئات وخلق ظروف ملائمة لاستبداد القواد والشيوخ واستغلال الرعية وابتزازها فمل الناس ذلك الوضع وجعلهم أكثر تطلعا إلى منقذ وبعدما أدركوا أن لا ملجأ لهم يومئذ من العودة إلى أحضان السلطة الشرعية التي كان يمثلها المولى سليمان في فاس أسرعوا إلى دعوته وألحوا عليه في القيام بحملة تساعدهم وتساعد الأمة على الإنقاذ من عوامل الإتلاف ومن التردي في مهاوي التشردم والتمزق.

كانت أولى الوفود التي وفدت على المولى سليمان من الحوز هي وفود الرحامنة متنصلة من سابق عملها وخالعة طاعة المولى الحسين ومؤدية البيعة لمولاي سليمان وكان ذلك بداية انطلاق حملة المولى سليمان نحو تامسنا والحوز حيث تمكن من إخضاع الشاوية وقبائلها واضطر مولاي عبد الملك المستبد بها إلى الإلتجاء إلى سوس ثم تراجع عن ذلك وآثر الإستسلام وتقديم البيعة وطلب عفو السلطان وبذلك أصبح

عرب الشاوية خاضعين لمولاي سليمان الذي عين عليهم الغازي بن المدني وليا لتدبير شؤونهم وترجع هذه الأحداث إلى حوالي 1210هـ.

لم يجد المولى سليمان صعوبات تذكر في حملته هذه إذ كانت تلك القبائل قد ملت تلك الأوضاع التي كانت تعيشها فأسرعت قبيلة عرب دكالة والرحامنة وعرب زمران وغيرها إلى مبايعة السلطان والالتحاق بركابه ودخولها معه إلى مراكش معززة لجانبه فلم يسع مولاي الحسين إلا ترك المدينة والإلتجاء إلى الأطلس الكبير والإحتماء بقبائله من المصامدة والإستقرار بزاوية مولاي إبراهيم وكان دخول مراكش من قبل السلطان سنة 1211هـ.

يبدو أن مولاي هشام لم يعد يحظى بتأييد من كان معه من القبائل باستثناء عرب عبدة وسكان مدينة أسفي وقائدها بن ناصر العبدي غير أن هذا الأخير لما أحس أن الرياح تسير في اتجاه معاكس بدأ يتذبذب في ذلك الولاء الذي استمر عليه زمنا طويلا لمولاي هشام وخاصة بعد أن بعث إليه مولاي سليمان بكتب يتهدده فيه إن استمر في موقفه وخيره بين توبة وغفران أو عصيان وعقاب. ففضل السلامة وقلب ظهر المجن لمولاي هشام وسلم الأمر لأهله وتعلل عن الحضور لمراكش بالعجز والمرض فقبل منه السلطان ذلك إلا أنه في سنة 1212هـ عزم عليه بالحضور والشخوص بنفسه لمراكش ففعل.

أما مولاي هشام فإنه ترك أسفي غير آسف والتحق بزاوية الشرادي ولما رأى السلطان أن أخاه لم يعد له من خطر لم يرد أن يتركه ينتقل من دانية إلى قاصية وكان له مقدرا وحفيا وبه معجبا فبعث إليه

بالأمان ودعاه للقدوم عليه بمراكش فلم يتردد مولاي هشام من إجابة أخيه وهيأ له السلطان استقبالا كبيرا واحتفل بقدومه وأنزله المنزلة اللائقة بأمثاله وخاطبه بالألقاب الشريفة مظهرا له المودة والاحترام مخيرا له بين الإقامة والانتقال فاختار مولاي هشام الرباط دار إقامة إلا أن لم يألف الإقامة به إلا ردحا من زمن فعاد إلى مراكش وظل بها إلى أن وفاه الأجل ووري الجدث ملتحقا بالرفيق الأعلى (راجع الناصري وأكنسوس).

كانت مدينة وجدة ومنطقة أنكاد وبني بزناسن وما فيها من عرب وبربر قد أصبحت تخضع لأتراك الجزائر الذين وجدوا فيها من يسعفهم على ذلك من ذوي الضمائر الخربة مغتنمين فرصة الانقسامات الحاصلة في البلاد وغياب السلطة المركزية إلا أن المولى سليمان باسترجاعه لمنطقة تامسا والحوز ومراكش وسوس وتنازل مولاي هشام وتخلى مولاي الحسين عن مراكش خلا له الجو من أجل التفرغ لمواجهة مشاكل شرق البلاد ومع استعادة الدولة لعافيتها قرر السلطان استعادة منطقة وجدة إلى حضن الدولة.

كان أتراك الجزائر ودياتها قد هيمنوا على شرق البلاد مستمرئين بقاءهم فيها إلا أن السلطان ما إن فرغ من مشكلة الجنوب حتى بعث بجيش مؤلف من عرب الودايا بقيادة عياد بن أبي شفرة وعرب شراقة بقيادة محمد بن خدة وأردفهم بعرب الأحلاف إلى تلك الجهات لإسترجاع ما امتدت إليه يد الأتراك من الأراضي وقبل الدخول في صراع عسكري مباشر كان السلطان قد راسل داي الجزائر في شأن

استعادة تلك الأراضي سلميا فوجد تفهما من قبل الداي الشيء الذي كفى الجانبين مؤونة الدخول في حرب بينهما حيث تنازل الأتراك عن بني يزناسن وعرب سقونة والمهاية وأولاد زكري وأولاد علي وكان استرجاع تلك المناطق في الواقع ما هو إلا تثبيت للسيادة المغربية على أراضيها، إلا أنه لم تكن هناك حدود واضحة متفق عليها بصورة مدققة بين أتراك الجزائر وحكومة المخزن مع الأسف.

ويظهر أن المناطق الجنوبية الواقعة جنوب وادي درعة وما جاورها كانت هي الأخرى كذلك قد عاشت لفترة غير قصيرة في الفوضى وغياب السلطة، مما شجع سكانه من عرب وبربر على الاستبداد وعدم دفع الواجبات المخزنية والإستيلاء على القلاع والحصون والقصور وطرد ممثلي المخزن وعدم الاعتراف بهم والتحكم في الطرق التجارية ومصادرة القوافل. فاستدعى ذلك إرسال حملة عسكرية بقيادة أحمد اشقراس لإخضاع قبائل عرب بكار وذوي بلال والتكنة وغيرهم وقد تمكن من إخضاع تلك المناطق بقبائلها وإعادة الأمن إلى ربوعها والانضواء تحت لواء دولة المخزن وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1216هـ.

ظلت الأحداث تتوالى بين القبائل والمخزن مدا وجزرا إلى سنة 1224هـ ففي هذه السنة بعث السلطان بالجيش إلى منطقة عرب تادلا وورديغة فمن تادلا بنو موسى وبنو عمير ورفالة وعياط من سكان الهضاب وسفوح الأطلس الكبير ومن ورديغة مثل عرب الأعشاش والسوالم وأولاد السماعلة والمطارفة والرزين واستطاع ذلك الجيش اقتحام تلك المناطق من عرب وبربر وجباية أموالها.

إن من أهم المشاكل التي واجهت المولى سليمان مشكلة تحالف برابرة فازاز أو الأطلس المتوسط من كروان وأيت أومالو ومن حالفهم من البربر على محاربة الوجود المخزني بمناطقهم وبالرغم من محاولة مولاي سليمان تأليفهم بالإحسان والعطاء فلم يكن ذلك ليزيدهم إلا عتوا ونفورا. وعملوا على مهاجمة القرى والمدن المجاورة ورجالات المخزن فلم يكن هناك بد من محاربتهم وإيقافهم عند حدهم، فاستدعى السلطان قبائل الغرب من بني سفيان وبني مالك وعرب الحياينة وبني حسن والأحلاف وغيرهم من عرب الودايا. بالاضافة إلى بعض قبائل البربر من أجل المشاركة في الزحف على تلك الجموع المتمردة إلا أن الجموع التي استدعاها المولى سليمان لم يكن لها من التنظيم والاستعداد والثبات أو الرغبة ما يجعلها تفوز برهان أو تربح معركة إذ سرعان ما اختلت صفوفها وسادتها الفوضى وانقلبت بسوء منقلب وعاد المولى سليمان إلى مكناسة الزيتون وهو من الكاظمين الغيظ. (الاستقصاء ج8).

كانت بلاد الريف في هذه الفترة على علاقة تجارية بينها وبين الأجانب ولم تكن تراعى أوامر السلطان الذي كان يمنع ذلك خاصة إذ كانت الدولة تمارس سياسة العزلة واحتكار التجارة تصديرا واستيرادا في حين كان سكان الريف يقومون ببيع القمح والمواشي للأجانب غير آبهين بأوامر السلطان ومصرين على ذلك فعمل السلطان سنه 1228هـ على تجهيز حملة تأديبية لمنطقة الريف وشارك في تلك الحملة قبائل عرب الغرب من سفيان وبني مالك وقاد تلك الجموع الأمير مولاي إبراهيم

كما شارك فيها السلطان بجيشه فتم إخضاع تلك القبائل وعمل السلطان على تعيين أحمد بن عبد الصادق الريفي وليا على تلك المناطق والواقع أن هذه الحملة كانت هي الحملة الثانية لبلاد الريف إذ سبقتها حملة مماثلة ولنفس الغاية سنة 1225هـ. (راجع الاستقصاء ج 8 ص 114 وأكنسوس).

كانت منطقة تامسنا وقبائلها قد أصبحت في خلاف مع عاملها القائد كريران الحريزي الذي كثرت في مدة حكمه التعسفات والمظالم مما دفع تلك القبائل إلى الوقوف في وجهه ونبذ طاعته، إلا أن السلطان اعتبر ذلك خروجا عن موجبات الطاعة واستمع إلى مفتريات عامله مصدقا له عن حسن نية وبدون تأكد فأسرع إلى تجهيز حملة هادفا بها إعادة الأمور إلى نصابها، ولم يجد صعوبة في ذلك كما هاجم قبائل الحوز وخاصة قبائل عرب دكالة وعبدة والشياظمة التي خرجت على عاملها الحاج محمد بن عبد الصادق، وبعد إخضاع تلك القبائل أجرى تحقيقا في دعوى تلك القبائل وشكاياتها فتبين أن الحق معها فعمد السلطان إلى عزل أولئك القواد بعد ما تأكد من الحيف والجور الذي كان يمارس على تلك القبائل ووافق ذلك سنة 1230هـ.

أما في سنة 1231هـ فقد التفت السلطان إلى قبائل الصحراء الشرقية الجنوبية التي أصبحت تسودها الفوضى والاضطرابات وهيمن عرب الصباح وبرابرة أيت عطا عليها ولم يعد للسلطة المخزنية وجود حتى أن تلك القبائل استولت على قصور المخزن في تلك المناطق وتصرفوا تصرف من لا يخضع لا لدولة ولا لسلطان حتى تعطلت تجارة القوافل

بين المغرب والدول المجاورة وصودرت الأموال وفقد الأمن وأزهقت النفوس.

أمام هذه الأوضاع قرر السلطان إيقاف هذه الظاهرة المتمثلة في تمرد القبائل والعمل على الحد من نفوذها حيث أرسل ابنه المولى إبراهيم لإخضاعهم وعندما باشر الأمير محاصرة تلك القصور التي تحصنت بها العناصر المتمردة وشعرت أيت عطا بعدم قدرتها على الصمود والمواجهة أظهرت استسلاما ظاهريا وثق به الأمير إبراهيم حيث سمح لمتحصنيها بالخروج من تلك القصور وكان ذلك مجرد خدعة قصد بها الوصول إلى تلك المناطق ذات المرتفعات والشعاب الأكثر تحصنا ومنعة ولما تيقن الأمير إبراهيم بعدم وفاء تلك القبيلة بتعهداتها عمد إلى قتل الرهائن الذين أخذوا من قبل أيت عطا كضمان بعدم نكثها للعهود.

لم يستطع المولى إبراهيم القضاء على تلك الاضطرابات في مدة قصيرة خاصة بعد أن تحصنت القبيلة بالجبال حيث اضطر السلطان إلى تجهيز حملة جديدة بعد مرور عدة أشهر وقبل أن يتوجه إلى تلك المنطقة قصد أول الأمر حوض ملوية، ثم انصب نحو واد غريس ومنها إلى قصور آيت عطا، فكان النصر في انتظاره على تلك القبائل والعناصر المتمردة فعمل على هدم تلك القصور ومصادرة ما فيها من مال وأثاث وبذلك تم إخضاع قبيلتي أيت عطا وعرب الصبح ومن انضاف إليهم (رجع الجيش العرمرم).

في سنة 1232هـ كان المولى سليمان قد ترك الصحراء الشرقية الجنوبية واتجه نحو مدينة مراكش عبر واد غريس مخترقا الجنوب الشرقي

للأطلس الكبير إلى أن وصل إلى عاصمة الجنوب ومنها بدأ يعمل على القيام بتفقد شؤون الرعية وأحوالها في منطقة الحوز وخاصة قبائل عرب دكالة وعبدة والشياظمة حيث عمل بعض القواد وتعيين آخرين وإلقاء القبض على مثيري الاضطرابات وتطهير تلك المناطق من العثات سواء على مستوى الاجتماعي أو الإداري.

لم تمر على هذه الأحداث إلا سنتان حتى عرفت منطقة زيان في الأطلس المتوسط بأيت أومالو فاستدعى السلطان الجيش وعرب اشراقة وعرب الغرب وعرب الحوز للقيام بحملة ضد زيان.

كان الجيش السلطاني يضم عناصر عربية وأخرى بربرية وعندما وقع اللقاء بمنطقة أدخسان لعبت العصبية البربرية دورها في تحزيب البربر في جيش السلطان متآمرة مع أبناء عمومتها وكان مدبر تلك المؤامرة هو الحاج محمد بن الغازي قائد زمور مما فت في عضد الجيش وقبائل العرب وجر الهزيمة على جيش السلطان ولم تكن تلك الهزيمة راجعة إلى تلك المؤامرة وحدها بل ترجع إلى عامل آخر وهو عدم الرغبة في القتال عند تلك الجموع لأن أغلبية القبائل كان قد أنهكها الوباء قبل ورودها ساحة القتال واستنفرت وهي في حالة من الضعف والوهن فقد حصد ذلك الوباء آلالاف من خيرة عناصرها وخاصة من قبائل عرب الغرب. كما ورد ذلك في الاستقصاء والجيش العرمرم، بل أن عرب الحوز كانوا لا يزالون متذمرين مما حاق بهم من قبل الجيش سنة 1132هـ من سجن وقتل. وبالاضافة إلى ذلك فإن القيادة في الجموع السلطانية لم تكن موحدة وأغلبية تلك الجموع لم تكن متجانسة بل متنافرة وكثيرة

العدد، ويصعب على جهاز إداري قليل التحكم فيها إذ بلغت تلك الجموع حوالي ستين ألفا على حد بعض الروايات، وإن كان هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد ما.

وإذا أردنا زيادة تحليل لهذه الهزيمة فإننا سنجد هناك أشياء أخرى كتنافس القواد فيما بينهم وقد تمثل ذلك في تنافس محمد بن الغازي رئيس قبيلة زمور وزعيمها مع الحسن بن حمو واعزيز كبير أيت ادراسن والذي كان يحظى بثقة مولاي إبراهيم واصطفائه مما كان يثير حفيظة بالغازي. كل هذه العوامل جرت الهزيمة على جيش السلطان وأفقدته المصداقية وتعرض إلى مهاجمته من قبل العدو وتفرقت تلك الجموع وعجز الحرس الخاص من الدفاع واضطر السلطان إلى الاختفاء في ظروف صعبة وتمكن في النهاية من الرجوع إلى مكناس بمساعدة من بعض رعاياه.

كان من نتائج هذه الأحداث أن فقد السلطان ابنه مولاي إبراهيم كما أفقدت هذ الواقعة المخزن كثيرا مما كان يتمتع به من الهيبة والاحترام وجرؤت الغوغاء والدهماء على الانتزاء والعصيان واهتز كيان الدولة.

في هذا الظرف لم تعد البربر ترعى للسلطان حرمة فأثناء عودته من مكناس إلى حاضرة فاس كانت البربر تهاجم مؤخرة الجيش وتنهب ما وصلت إليه يدها ولما وصل السلطان إلى فاس أمر بامتحان من بها من البربر وما تجب الإشارة إليه أن أبا بكر مهاوش كان من معارضي المولى سليمان وممن حرض البربر على الثورة عليه وكان له فيهم نفوذ روحي معتقدين بولايته.

لم يستمر المولى سليمان طويلا بفاس ففي رجب من سنة 1235هـ توجه إلى شمال البلاد ونزل بالقصر الكبير وعمل على تثبيت الوضع المخزني في المنطقة وإصلاح شؤون بلاد الهبط بصورة عامة والنظر في مشاكل عرب الخلط والطليق والعمل على حلها ومثل ذلك فعل مع سفيان وبني مالك من عرب الغرب بإحضار القواد والشيوخ والتأكيد عليهم في وجوب رعاية المصالح العامة للرعية.

كان مولاى سليمان قد تقلص نفوذه على جزء مهم من البلاد إلا أن المناطق الساحلية والسهول الداخلية ظلت وافية مؤدية فروض الطاعة ووجباتها فعندما رجع السلطان من بلاد الهبط ونزل بالرباط قدمت قبائل الحوز طاعتها ومثل ذلك فعلت عرب الغرب وعبدة والشاوية والرحامنة وزمران والسراغنة والشياظمة وعرب بني حسن وقبيلة زعير. ونفهم من هذا أن العرب وما جاورهم من المدن وكانت كلها لا تزال منضوية تحت راية السلطان وعلمه، إلا البربر وخاصة الأطلس المتوسط فإنهم كانوا على غير ذلك يعملون بإيحاء من زعيمهم الروحي مهاوش وكبيرهم بالغازي.

أما العبيد فإنهم كانوا قد عادوا إلى ديدانهم القديم من الاعتداد بأنفسهم والضلوع في المؤمرات ومثل ذلك فعل عرب الودايا الذين عاثوا في فاس فسادا مستغلين عجز السلطان على قمع حركاتهم نظرا لانتهاكه بالحركات السابقة وتقدمه في السن.

كان لإقامة مولاي سليمان بمراكش وشعوره بالإحباط واليأس من إصلاح المختل من شؤون البلاد وبعثه برسالة لأهل فاس ليحظهم

فيها على مساعدة المخزن على القيام بمهامه وتجنيب البلاد كارثة خلو البلاد من سلطة شرعية تعيد الأمن والاستقرار معلنا أن السلطان لا يمكنه القيام بذلك وحده إذ لم يجد تأييدا ومعاضدة من قبل الأمة.

كان للأحداث التي شاهدتها فاس من جراء عيث الودايا والعبيد وشيوع الفوضى نتيجة غياب السلطة والتفسير السيء للرسالة التي بعث بها السلطان لأهل فاس أثر سيء ناتج عن سوء فهم وتقدير لتلك الرسالة الموجهة لأهل فاس، حيث دفعهم ذلك إلى الاعتقاد أن السلطان ينوي التخلي عن العرش فعملوا على الإعلان بخلعه والمناداة بمولاي إبراهيم بن اليزيد ملكا على البلاد، وأيدتهم في ذلك بعض قبائل البربر كأيت ادراسن بزعامة الحسن بن حمو وعزيز المطيري وقبيلة زمور وقبيلة احكم بزعامة محمد بن الغازي وبعض شيوخ التصوف المنحرفين عن السلطان الذي تعاطف مع الحركة الوهابية ومن هؤلاء الشيوخ أبو بكر مهاوش ومحمد بن العربي الوزاني ومحمد العربي الدرقاوي شيخ الطريقة الدرقاوية وكثير من أعيان أهل فاس.

وإذا كان أهل فاس ومن تبعهم قد بايعوا مولاي إبراهيم فإن العبيد وعرب الودايا وعرب الغرب وعرب بني حسن خاضوا حربا ضد أنصار مولاي إبراهيم وساندهم في ذلك عرب دخيسة وأولاد النصير وكل ظل على وفائه لمولاي سليمان حيث بعثوا برؤوس أعدائه لمراكش عربون ولاء ووفاء في وقت حاول أنصار مولاي إبراهيم بسط نفوذهم على المناطق الشمالية، وأخذ بيعتها فلم يتم لهم ذلك إلا في القصر الكبير وتطوان وامتناع العرائش وطنجة عن ذلك إلا أن مولاي

إبراهيم سرعان ما وفاه الأجل بتطوان بصورة مفاجئة وغامضة. فعمل أنصاره على بيعة أخيه مولاي السعيد وانقلبوا إلى فاس بينما كان مولاي سليمان قد حل بالقصر الكبير ومنه اتجه إلى طنجة. ثم عاد على إثر ذلك إلى فاس لمواجهة أعدائه وشهدت قنطرة سبو صراعا دمويا بين عرب الودايا أنصار مولاي سليمان وبرابرة زمور وأيت إدارسن وغيرهم من أنصار السعيد، فكانت الهزيمة والدبرة على البربر وأهل فاس وبامتناع أهل فاس من الرضوخ وقفلهم الأبواب واستمرارهم في الرمي من الأسوار وقتلهم الكثير من أنصار المولى سليمان نصب عليهم السلطان المدافع والمهارس وخرب دورهم وأقام عليهم الحصار عشرة أشهر ذاقوا فيها من كل مر طعما ولونا ولم يرفعه عنهم حتى بعد انتقاله لطنجة.

كانت تطاوين من المناطق التي ظلت متشبثة ببيعة المولى السعيد ولم يراجع أعيانها أنفسهم في ذلك ولربما عاد ذلك لدور الزوايا ورجال الطرق المعارضين لبيان مولاي سليمان القاضي بتحجيم نشاط أهل الزوايا وإيقاف المواسم الاحتفالية التي كانت تقيمها تلك الطرق إذ كان لهذه الفئة دور مهم في المجتمع ودور خطير في استمرار المعارضة لمولاي سليمان ويمكن القول أن هذا الأمر قد شابه شيء غير قليل من صراع مذهبي إيديولوجي ديني إذا صح التعبير ولا غرو أن كثيرا من عرب السهول الساحلية والداخلية كان قد ساد بينهم الانتماء إلى هذه الزوايا والطرق كما سادت فيهم بصورة عامة إحياء المواسم التي كانت ترعاها الطرقية آنذاك والتي كانت حريصة على عدم فقدانها لدورها اجتماعيا وسياسيا.

أما السلطان فإنه قام باستدعاء المولى عبد الرحمن بن هشام لأن يقوم بالتوجه بالجيش إلى القصر الكبير مصحوبا بقواد قبائل الحوز إلا أن الاجتماع بالسلطان لم يتم إلا بالعرائش حيث حض السلطان القواد على الثبات في مواجهة المولى السعيد وأنصاره وبعد مدة قصيرة توجه السلطان نحو سوق الأربعاء الغرب وبدلا من أن يهاجم فاسا اقتضى نظره مهاجمة عرب الحياينة وبعد مناوشة مع بعض القبائل كغياتة استطاع دخول مدينة تازا فحرم مولاي السعيد من تأييد عرب الأحلاف.

لم يكد السلطان يستقر بتازا حتى توافدت عليه عرب أنكاد بالشرق والصحراء الشرقية ولم يتعجل في مهاجمة فاس بل أخر ذلك إلى أواخر شهر رجب من سنة سبع وثلاثين ومائة وألف وكان دخوله إليها على غير ما كان متوقعا فقد تخلى أهل فاس عن السعيد وفتحوا أبواب المدينة مقدمين الطاعة والولاء إلى مولاي سليمان بل عمد المولى السعيد إلى تسليم نفسه وجاء بصحبة مولاي عبد الرحمن بن هشام وباستسلام السعيد قدمت وفود تطوان مقدمة ولاءها وخاصة بعد أن علمت أن السلطان كان عازما على غزوها بعدما استدعى القبائل الحوزية وعرب الغرب من بني مالك وسفيان وغيرهم.

كانت المدة التي قضاها المولى سليمان في فاس قصيرة إذ سرعان ما قرر الذهاب إلى مراكش التي دخلها مع القبائل الحوزية مرفوقا بالجيش في رمضان من سنة 1237هـ. وما أن استقر بها حتى ظهرت إلى الوجود مشكلة قبيلة عرب الشراردة المؤلفين من عدة عشائر كالشبانات وزرارة

وأولاد دليم والتكنة وذوي بلال وكانت منطقة غرب مراكش من أهم مراكز تواجدهم وهم من ذوي أصل معقلي وقد تكاثرت أعداءهم مع مرور الزمن وازدادت تلك القبائل رفعة بوجود الزاوية الشرادية التي أسسها محمد المهدي الشرداي وتزعمها المهدي أحد أتباع الزاوية الناصرية. وقد تطورت تلك الزاوية إلى مركز ديني كبير بمنطقة الحوز وأصبح لزعيمها المهدي بن محمد الشرادي على عهد مولاي سليمان مكانة ونفوذ روحي على تلك المناطق وأصبح شيخها ينازع عامل المخزن في المكانة والنفوذ وشؤون الحكم وأصبح يحمي ويأوي ويشفع في كل من يأوي إلى الزاوية أو اعتصم بها ويمتنع من تسليم من يلح العامل في إحضاره ومحاكمته فأدى ذلك إلى تنازع السلط فتقدم عامل الناحية قاسم الشرادي إلى رفع الأمر إلى السلطان عند وصوله إلى مراكش.

كان المولى سليمان يريد التخلص من نفوذ هذه الزاوية ومن شيخها وشجعه على ذلك بوستة عامل مراكش وقاسم الشرادي وقاسم الرحماني عامل الرحامنة فاستدعى الجيش والقبائل الحوزية لهذا الغرض وسارع قاسم الرحماني بقبيلته لمهاجمة الزاوية الشرادية إلا أن الشراردة هزموه وبهزيمته اختلت محلة السلطان وانقلبت باقي القبائل على أعقابها مدبرة وتركت المولى سليمان يواجه المصير هو وشرذمة قليلة من حراسه. وكانت هذه الوقعة بالمنطقة المعروفة بعين دادة بناحية مراكش (راجع الاستقصاء ج 8 والجيش العرمرم).

كان السلطان قد أحيط به من قبل الدهماء والغوغاء إلا أن كبراء القبيلة عملوا على حمايته ودافعوا عنه وساروا به إلى الزاوية محترمين

لجلالته مكرمين لجنابه ومعتذرين له حتى صلى بهم الجمعة ثم عاد بصحبتهم إلى مراكش لم يلحقه سوء وكان من نتائج هذه الحادثة أن فقد عرب الرحامنة أهميتهم من قبل حكومة المخزن وقتل قائدهم قاسم الرحماني وكذلك عمر بن بوستة وتحولت زاوية الشرادي إلى معقل وشيخها إلى أمير تحميه الفرسان ويمتلك المدافع والمهارس التي غنمها من الجيش السلطاني وأصبحت زاويته صحنا تنصب على أسواره المدافع.

أصبحت وقعة زاوية الشرادي شديدة الوطأة على نفسية المولى سليمان وظهر فيها عدم جدوى الاعتماد على قوة القبائل لعدم ثباتها، وانتاب السلطان شعور بالإحباط ويأس من إصلاح الأوضاع وخاصة بعد أن عمدت قبيلة عرب الشياظمة وذوي بلال إلى مهاجمة المصالح المخزنية بقيادة علال بن محمد لمدينة الصويرة ومرساها واقتسموا مداخل الإدارة الجمركية المعروفة في الاصطلاح المغربي باسم الصاكة مما أفقد الحكومة ودولة المخزن موردا أساسيا في تسيير شؤون الدولة، وصدف ذلك تعرض السلطان إلى مرض عضال نتيجة الإرهاق الشديد الذي أصابه من جراء تلك الأحداث الجسام مما فتّ في عضده حتى عزم على التخلي عن الملك والكتابة بولاية العهد إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام الذي كان مقيما بفاس والذي بويع من قبل أعيانها بعد إطلاعهم على الكتاب الموجه إليه من قبل السلطان وكانت وفاة المولى سليمان بمراكش في 26 ربيع الأول من عام 1238هـ.

مولاي عبد الرحمن بن هشام

كان وصول المولى عبد الرحمن بن هشام إلى الحكم يعني مواجهة المشاكل ومخلفات تركة المولى سليمان فالسلطة المركزية أصبحت ضعيفة والخزينة العامة فارغة والجيش لم يعد له من وجود إلا من حيث اسمه أما العبيد فقد تفرق أكثرهم ولم يعودوا قادرين على الاستمرار في الخدمة بدون راتب ولا مؤونة والبربر أصبح زعماؤهم ملوكا غير متوجين ويعزفون على وتر العصبية ويتعللون بمختلف العلل وأهل الزوايا لم تكن ترضيهم مواقف المولى سليمان المضرة بمصالحهم ونفوذهم ويمثلهم شيوخ كبار ذوو نفوذ روحي كبير على أتباعهم ومريدهم سواء بين البربر أو العرب من أمثال الشيخ محمد العربي الدرقاوي سجين المولى سليمان لمبايعته المولى إبراهيم بن اليزيد وقد سايرهم عن ذلك الشيخ العربي الوزاني شيخ الزاوية الوزانية ذات النفوذ العريض في الشمال وأبو بكر مهاوش الذي يرفعه البربر في الأطلس المتوسط إلى درجة القداسة والمهدي الشرادي في غرب مراكش بزاويته ومريديه والذي تحولت زاويته إلى قلعة بأسوار وأبراج ومدافع.

إن هذه الظروف التي واجهها المولى عبد الرحمن تمثل صورة الوضع الذي أصبحت عليه البلاد المتمثلة في الانحلال والتفكك الذي أصاب الدولة فكان من الضروري القيام بعمل جاد وبعزيمة صلبة لاسترجاع كيان الدولة وهيبتها وإعادة مفاهيم الولاء وتوحيد البلاد والقضاء على مظاهر التسيب في تلك المناطق التي سادتها الفوضى وهيمن عليها دعاة التمرد والانتزاء، وهذا ما سيعمل المولى عبد الرحمن على مواجهته ومحاولة تغييره.

كانت مشكلة برابرة فازاز بالأطلس المتوسط من المشاكل الكبيرة التي تهدد كيان الدولة ووحدتها فبرابرة زمور وأيت إدرسن وغيرها كأيت يمور كانت تسير في ركاب الحاج محمد بن الغازي الزموري وتوجه من قبل أبي بكر مهاوش وكلاهما كان مناوئا للسلطان وساندهم في ذلك من العرب عرب تادلا ووردیغة وبعض عرب بني حسن من الصفافعة والتوازيط وكذلك عرب قبيلة زعير وأصبح هذا الحلف يشكل خطرا كبيرا على الدولة إلا أنه سرعان ما انهار لوقوع الخلاف بين قادته ومدبره فبصورة غير منتظرة سارع محمد بن الغازي إلى القدوم على السلطان وتقديم الولاء مشفوعا بالهدايا والاعتذار فلم يسع بقية البربر والعرب المناوئين للمخزن إلا تقديم الطاعة وفك ذلك الحلف وتراشقهم بالتهم وانقلب عليهم كيدهم وذهبت ريحهم.

كنت آيت يمور المشاركة في الحلف السابق الذكر نازلة بجبل سلفات وسهل سايس وعملت على الاضرار بجيرانها من عرب الغرب وسكان زرهون وناحيته وعندما انتقل السلطان مولاي عبد الرحمن إلى مكناس عزم على الإيقاع بتلك القبيلة والحد من سطوتها فهاجمها وأوكل إلى القائد محمد بن يشو المالكي أمر إزعاجها عن مواطنها في جبل سلفات وسايس والعمل على نقلها إلى حوز مراكش وهكذا فقدت أيت يمور تلك الأراضي الخصبة التي طالما نعمت بخيراتها.

عزم مولاي عبد الرحمن على ترك مكناس مصحوبا بالجيش والتوجه إلى الرباط وفي الواقع أن وجهته لم تكن في الحقيقية إلا نحو تامسنا والحوز إذ لم يقض إلا مدة يسيرة بالرباط حتى توجه نحو الشاوية

فعمل على تفقد أحوالها وتعين قوادها ومثل ذلك فعل مع عرب دكالة وغيرها من القبائل.

كان المولى عبد الرحمن عازما على استعادة هيبة الدولة ونفوذها فاختار شخصية قوية من أبناء عمومته هو مولاي الطيب فعينه على عموم قبائل تامسنا ودكالة وتميز مولاي الطيب بالشدة على المنحرفين عن المخزن فجرد حملة على أولاد حريز وهدم قصبة كريران الحريزي وشرد وقتل ويظهر أن هذه القبيلة كانت منحرفة عن الدولة، ومثل هذا فعل مع بعض قبائل دكالة فكان لسيرته هذه وقع شديد في نفوس بقية القبائل وعظمت وطأته عليها وسادها الرعب والفزع إلا أن المولى عبد الرحمن أدرك أن الاستمرار في هذا النهج قد يؤدي إلى غير ما قصد به من تثبيت الأمن والاستقرار ولربما أتى بنتائج معكوسة فعمل على صرف مولاي الطيب إلى الصحراء لإعادة قبائلها إلى الالتزام الطاعة والولاء واحترام ولاة المخزن عليها.

عرفت المنطقة الشرقية في هذه الفترة الاضطراب وعدم الاعتراف بسلطة المخزن من قبل بعض قبائلها نظرا لمجاورتهم لأتراك الجزائر ومن تلك القبائل عرب سقونة والمهاية وأولاد نصير وكلهم يحترفون الانتجاع بالماشية ويتنصلون من أداء الواجبات بمختلف العلل فعمل السلطان على إرسال القائد إدريس بن حمان الودي الجراري إلى تلك النواحي قصد تثبيت الأمن وتأمين الطرق التجارية وإخضاع تلك القبائل وجبايتها. إلا أن تلك الجبايات كان يعز الحصول عليها في الأزمنة الجافة والشحيحة الأمطار وبحكم انتجاع هذه القبائل وانتقالها

بين المغرب والجزائر بحثا عن الماء والكلاء فإنها أصيبت بازدواجية الانتساب والولاء. وعندما جاءت وفود عرب أنكاد إلى السلطان داعية إياه لزيارتهم سألهم عن أحوالهم فشكوا له قلة الخصب فعدل عن تلك الزيارة وعمل على إرجائها إلى وقت آخر كانت هذه الأحداث من أحداث سنة 1243هـ.

كان السلطان قد عين أخاه المولى المأمون على مدينة مراكش والحوز وكان المأمون قد أصبح على خلاف مستمر مع قبيلة الشراردة وزعيمها المهدي الشرادي شيخ الزاوية ويظهر أن المأمون قد أراد ضبط شؤون القبيلة وإخضاعها عن طريق تعيين مجموعة من القواد عليها فتضاعفت الجبايات واشتدت وطأة ذلك على الناس وكثر تبرمهم وتعارضت هذه السياسة مع مصالح الزاوية ورفعت شكواها إلى السلطان والذي كان يعلم أن المصالح هناك متعارضة وأصبح المهدي الشرادي يحس أن المخزن يتربص به وبقبيلته فسارع إلى تحريض قبيلته وأنصاره على نبذ الطاعة وظهر ذلك واضحا عندما قام وأنصاره بإلقاء القبض على أولئك القواد الذين عينهم مولاي المأمون.

في هذه الظروف استنفر السلطان قبائل عرب الغرب كبني مالك وسفيان وبني حسن وعرب تامسنا كالشاوية وقبائل دكالة وتوجه إلى أسفي وما أن استقر بها حتى قام بمباغتة الزاوية الشرادية من غير سابق إنذار وبالرغم من صمود الزاوية وأنصارها من قبيلة الشراردة لمدة سبعة أيام فإن مقاومتها انهارت أمام قدائف القصف المتوالي عليها من المدفعية السلطانية مما جعل المهدي يقرر تركها والتخلي عنها وينصح أهلها

بالاستسلام ويلجأ إلى أيت باعمران بالسوس الأقصى (أنظر الجيش العرمرم).

لم يكتف السلطان باستسلام أهل الزاوية بل أمر الجيش بدك حصونها وأسوارها ومصادرة محتوياتها وإلقاء القبض على جل ما فيها من حملة السلاح والزج بهم في مختلف سجون البلاد إلى أن تم العفو عنهم بعد مدة من زمن وتسريحهم ونقل جموعهم إلى شرق أزغار حيث استقر معظمهم واستمر المهدي في ملجائه بأيت با عمران إلى أن جاءه عفو السلطان.

شهدت الفترة ما بين 1246- 1247هـ أحداثا جساما منها استيلاء الفرنسيين على الجزائر وعجز الأتراك عن الدفاع عنها وتوجه أهل تلمسان لمولاي عبد الرحمن بطلب الانضواء تحت لواء الدولة العلوية مبررين ذلك بعجز الدولة العثمانية عن حمايتهم وبقبول السلطان لبيعتهم وبإرسال الجيش إلى تلمسان الذي لقى معارضة الكرغلية من الأتراك وعرب الزمالة والدوائر ووقوف جيش المخزن في وجههم وتشريدهم ومصادرة أموالهم واقتسام فيئهم من قبل عرب الودايا والعبيد من غير إذن سابق من السلطان وافتياتا عليه مما اضطر السلطان إلى استرجاع تلك الجيوش وعزمه على معاقبة الجناة وبإحساس عرب الودايا أنهم معرضون للعقاب تحالفوا مع العبيد وكان ذلك من تدبير الحاج محمد بن الطاهر العقيلي.

عمل السلطان على القيام بإلقاء القبض على مدبر المؤامرة الحاج محمد بن الطاهر إلا أن حليفه الطاهر بن مسعود عمل على إنقاذه وقام

بتحريض عرب الودايا والمغافرة على التمرد فاضطر السلطان إلى ترك القصر بفاس وتوجه إلى مكناس إلا أن عرب الودايا أدركته وراودته على الرجوع إلى فاس الجديد مظهرة الطاعة وبرجوعه بدى من عرب المغافرة ما يدل على التطاول في السلوك وشيء غير قليل من التيه ولربما عزموا على أكبر من ذلك (أنظر الاستقصاء).

دخل السلطان فاسا ولكنه تحول عن فاس الجديد إلى بستيون وحصن أبي الجنود في حماية جيش أهل سوس ووجه الدعوة إلى عبيد مكناسة إلا أنه لم يطمئن لوجوده في فاس فقرر الذهاب إلى مكناس مهما كلف الأمر وأثناء انتقاله إلى مكناس وبطريقه إليها كانت الودايا تهاجم العبيد وتستولي على الامتعة والاثاث التابعة للسلطان وبوصول المولى عبد الرحمن إلى مكناس استدعى قبائل الغرب من سفيان وبني مالك وبني حسن كما استدعى قبائل الحوز لموافته بمكناس إلا أن عرب الودايا لما شعروا بما يتهددهم من أخطار عمدوا إلى مبايعة المولى محمد بن الطيب ولي تامسنا السابق.

إن هذه الأحداث تدل مرة أخرى على تردي الأوضاع من جديد وعلى مدى ما أصاب البلاد من جراء ضعف السلطة وعدم احترام قادة الجيش وشيوخ القبائل لتلك السلطة وانتشار روح الفوضى والتجرأ على أعلى منصب وسلطة في الدولة بسلوك استهتاري خشين.

ما أن استقر السلطان بمكناس حتى دعا الجيش والعبيد إلى التهيؤ لغزو فاس من جديد كما استنفر قبائل عرب الغرب لذلك ومعهم عرب الحوز وعزم على محاصرة بستيونات فاس وحصونها وزحف بذلك

الجيش الكثيف نحوها وصمم على الاستمرار في محاصرتها واستمر ذلك فعلا لمدة أربعين يوما وهاجم الودايا في مختلف أنحاء فاس إلى أن أذعن هؤلاء إلى التسليم والطاعة وطلبوا عفو السلطان متقدمين إليه بمختلف الشفاعات وأنواع الاعتذار فقبل منهم على أن يلتزموا أوامر السلطان والقبول بتعين إدريس بن حمان الجراري عاملا ووليا عليهم وذلك في جمادى الثانية من سنة 1247هـ.

قرر مولاي عبد الرحمن بعد تفكير طويل إجلاء عرب الودايا والمغافرة وأهل سوس عن مدينة فاس قصد تفكيك عصبة التمرد والاضطراب وإبعادها فعمل على نقل عرب المغافرة الأشد صلبة وعنفا وجرأة إلى قصبة الشرادي من أعمال مراكش وعلى نقل عرب الودايا إلى العرائش، إلا أنه بعد مدة عمد إلى إعادتهم إلى جبل سلفات أما أهل سوس فقد نقلوا إلى أحواز الرباط كقصبة تمارة والمنصورية وبذلك خلى فاس من مناوئ السلطان ومثيري الفتن، وألقي القبض على الطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر وأودعهما السجن وذلك سنة 1248هـ.

يمكن القول إن البلاد عرفت استقرارا نسبيا بعد القضاء على تمرد الودايا وحلفائهم واستمر ذلك ردحا من زمن إلا أن سنة 1265هـ ستعرف اضطرابا جديدا ستقوم به القبائل المحيطة بسلا والرباط ففي هذه الفترة قامت قبيلة عرب بني عامر أحد فروع بني حسن بمهاجمة مدينة سلا وعاثت في أجنتها وأرباضها حقولا وبساتين وصادرت المواشي واعترضت سبل التجارة وصادرت القوافل ومثل ذلك فعلت

قبيلة عرب زعير مع أهل الرباط فكان من الضروري إرسال حملة عسكرية لإستعادة الأمن إلى المنطقة وإيقاف العدوان على السكان وتأديب الجناة. وتم للسلطان ما أراد حيث قضي على مثيري الاضطرابات إلا أن المصادر التاريخية تكاد تكون خرساء عن أسباب ودوافع قيام تلك القبائل بما قامت به.

يبدو لي أن هذه الاضطرابات لم تكن وليدة الصدفة بل لها دوافع اقتصادية بالدرجة الأولى فقد عرفت هذه الفترة جفافا وشحا في سقوط الأمطار، مما أدى إلى عدم حصول الكفاية الإنتاجية لدى مختلف القبائل وظهر ذلك بشكل واضح في مناطق الحوز وتادلا كدكالة وعبدة وبني مسكين وغيرها من القبائل فانعدام المواد الأساسية وارتفاع الأسعار جعل تلك القبائل تندفع بصورة غير إرادية إلى مهاجمة قبائل الغرب وسايس التي لم تكن أسعد حظا منها ولا أوفر إنتاجا أو مرية فكانت ظاهرة الجفاف والمجاعة الناتجة عن ذلك هي المحرك لتلك القبائل للقيام بأعمال الشغب وتهديد أمن الدولة والسطو على ما في يد الآخرين وقطع السبل.

في سنة 1269هـ عرفت منطقة تادلا وورديغة في الهضبة الوسطى اضطرابات عرب تلك المناطق من أمثال عرب بني موسى وبني عمير حيث قامت قبيلة بني موسى بقتل عاملها أحمد بن زريوح وقد كلف السلطان عامل مراكش المولى محمد خليفة أبيه على تلك المناطق بالقضاء على تلك الاضطرابات وتمكن مولاي محمد في ظرف وجيز من القضاء على مثيري تلك الفتن قتلا وأسرا سواء في تادلا أو ورديغة حيث ثبت

الأمن في قبائل عرب السماعلة والكفاف وأولاد البحر وبني عمير وغيرهم.

يبدو أن تلك القبائل كانت كثيرا ما يهاجم بعضها البعض لسبب من الأسباب وخاصة ما يتعلق بالنزاع على الأراضي الواقعة على حدود كل قبيلة وبالأخص على تلك الأراضي الأكثر خصوبة وماءا وهذه الظاهرة لم تكن مقتصرة على قبائل العرب فيما بينها بل بين العرب ومن جاورهم من قبائل البربر.

في هذا التاريخ بدأ المولى عبد الرحمن يفكر في إقامة قوات عسكرية نظامية على غرار ما هو موجود في الدول الأخرى كالدولة العثمانية وبدا له أن الاعتماد على القبائل ونظام الحركة والاستنفار الجماعي للقبائل لم يعد مجديا فعزم على تكوين فرق انكشارية مغربية فقرر أن يتخذ من قبيلة الخلط عرب سهول بلاد الهبط جيشا نظاميا حيث عمل على نقل جزء مهم من مواطنهم حول القصر الكبير إلى منطقة سايس ومرتفعات زكوطة ناحية مكناس بعد أن منحهم الخيل والسلاح ولباس الجندية فظلوا ردحا من الزمن ينعمون بِجِرَيات السلطان عليهم بعد أن أعفاهم مما كانوا يؤدونها من الضرائب. إلا أن هؤلاء الخلط لم يعتادوا الانضواء تحت لواء الجندية والقيام بالواجبات منذ عهد السعديين فاختل نظامهم وانحل ما كان مبرما من أمرهم وعادت هيث إلى ديدانها فكان مصيرها الاسقاط من الخدمة والعودة إلى نظام القبائل الغارمة.

كانت مشكلة إخضاع قبائل البربر وخاصة زمور الشلح من المشاكل التي عانى منها مولاي عبد الرحمن واستمرت مقاومته لهم إلى

أن وفاه الأجل سنة 1276هـ فكان ذلك إيذانا بإعلان البيعة لمولاي محمد بن عبد الرحمن الذي أتته من مختلف الأنحاء وخاصة من مراكش ومن قبائل عرب الحوز وعندما حاول المولى عبد الرحمن بن المولى سليمان التوجه إلى فاس مطالبا بالعرش عارضته قبيلة عرب شراقة بقيادة محمد العربي بن المختار الجامعي وأفشلت مسعاه.

مولاي محمد بن عبد الرحمن

تعتبر مشكلة الخلاف مع اسبانيا حول حدود مدينة سبتة من أهم المشاكل التي واجهت مولاي محمد ومشكلة قيام قبيلة أنجرة بالتعرض للدوريات الإسبانية العسكرية وبعض المراكز التي احتلتها القوات الإسبانية والاتهامات المتبادلة وفشل مفاوضات طنجة بين الإسبان وممثلي المخزن مما سيؤدي إلى إعلان الحرب وإرسال السلطان للقائد المأمون الزراري بحوالي ستمائة من الرماة والفرسان لحماية تطوان وأردفها بألف وخمسمائة أخرى بقيادة مولاي العباس أخيه والاعتماد على المتطوعة من قبائل حوز تطوان في الدفاع عن المنطقة في وقت كانت القوات الاسبانية قد أعدت للأمر ما يلزم من قوات متفوقة من حيث العدد والعتاد الشيء الذي لم يكن متوفرا لدى الجانب المغربي كما لم يكن القاتلة من المغاربة ملتزمين بالانضباط الكافي وكان قتالهم مع العدو معتمدا على الكر والفر بينما كانت خطة الزحف المنهج هي خطة العمل الاسباني في هذه الحرب، مما أدى إلى فشل القوات المغربية في الدفاع والصمود أمام القوات الزاحفة فكان في ذلك سقوط مدينة تطوان ودخول القوات الاسبانية بقيادة الجنرال أردنيل واستباحة حرماتها.

بالرغم من سقوط المدينة فإن المقاومة من قبل متطوعة القبائل الجبلية ظلت صامدة تكافح عن تطوان عن حوزها وفحصها وعندما أراد أردنيل توسيع منطقة نفوذه واجه مقاومة عنيفة من قبل المجاهدين وتلقى ضربات متتالية وقوية وقد ظهر ذلك في منطقة أمصال حيث تحالف أهل الجبل مع قوات متطوعة من عرب الغرب كبني سفيان وبني مالك التي كان يقودها عبد السلام بن عودة الحارثي كما واجهت القوات الإسبانية مقاومة شديدة في وادي أبي صفيحة من قبل المتطوعة من أهل الجبل الذين عززت موقفهم المتطوعة من عرب الحياينة الذين أبدوا من الشجاعة والنصح في الميدان ما جعل قوات العدو تندحر اندحارا لم تعهده من قبل في وقت كانت قوات مولاي العباس لا تزال بعيدة عن ساحة المعركة.

كان لهذه المعارك التي حصلت خارج تطوان تأثير كبير في نفوس الإسبان وجعلتهم يقتنعون بأن مواصلة الحرب وعدم التفاهم سيأتي بنتائج غير منتظرة ومن هنا عملوا على إعادة النظر في موقفهم وفتح باب المفاوضات من جديد مع حكومة المخزن إلى أن عقدت معاهدة بين الطرفين التزم فيها الاسبان بالانسحاب مع تقديم المغرب تعويضات الحرب وتم الانسحاب من تطوان وما احتل من الأراضي في سنة 1278هـ بعد سنتين من الاحتلال. (راجع تاريخ تطوان).

لم تكد تنته مشكلة المواجهة مع الاسبان حتى واجه المخزن ثورة الجيلالي الروكي الذي قاد عرب سفيان في الغرب بثورة هاجم فيها دار القائد عبد الكريم بن عودة الحارثي مبيدا لأسرته ومتوعدا حكومة المخزن بكل شر والتحق بركبه الدهماء الذين كانت تحركهم حوافز

معقدة امتزج فيها التذمر بالطمع إلا أن تلك الثورة سرعان ما خبت جذوتها عندما هاجمتها جيوش السلطان بقيادة المولى الرشيد بضواحي سوق الأربعاء حيث تفرقت تلك الجموع ولجأ الروكي إلى زرهون حيث ألقي عليه القبض وقتل وبعث برأسه إلى مراكش سنة 1278هـ وما كان لهذا أن يحدث لولا الضعف الذي ظهر على الدولة في مواجهة الاسبان.

لقد كان لحرب تطوان انعكاسات داخلية سيئة منحت فرصة العيث في البلاد لأولئك المتربصين بالدولة شرا وظهر ذلك فيما قام به عرب الرحامنة من العيث والإفساد وعمليات السطو والنهب في نواحي مراكش وقيامهم بمحاصرة المدينة ومهاجمتها مغتنمين فرصة انشغال المخزن بمشكلة مواجهة الإسبان والقضاء على ثورة الروكي في الغرب وعلى عادة اعتادها هؤلاء الرحامنة حيث كانوا يعتبرون أن مراكش وفحصها فيئا لهم مع استطالة على سكانها إلى أن باغتهم المولى محمد بن عبد الرحمن بقوات أركست أعمالهم وسيق كبراؤهم ودهماؤهم إلى السجون فرادى وزمرا وأخذت منهم أخصب أراضهم كأيت سعادة والغواطم وعلى نفسها جنت براقش.

يبدو أن البلاد قد شاهدت بعض الاستقرار ولم تعد العرب لا في تامسنا ولا في الغرب تقوم بما يعكر صفو الأمن منذ سنة 1278هـ إلى أن شاع خبر مرض السلطان ووفاته فشجع ذلك المتربصين من العرب على القيام من جديد بأعمال السلب ومهاجمة الأسواق وإزهاق النفوس مما كان له انعكاسات سلبية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية نتيجة تلك الاضطرابات التي احدثوها فقد عادت عرب بنو عامر إلى مهاجمة سلا

ومحاصرتها، ولم يتوقف هذا العمل التخريبي إلا عندما صح الخبر باستعادة السلطان لعافيته وعودته بمباشرة شؤون الدولة وذلك سنة 1282هـ وهكذا فإن خلوا العرش أو ضعف صاحبه يكون نذيرا بقيام الاضطرابات وفرصة لمنتهزي الفرص وذوي الأغراض.

عرفت البلاد فترة من الاستقرار وعدم قيام العرب بأية تحركات مناوئة لحرمة المخزن إلى أن قامت قبائل تادلا بالخروج على عاملهم وما كان بها من مسؤولين فاحتاج السلطان إلى القيام بحركة لتفقد أحوال تلك المناطق وإخضاع تلك القبائل من عرب بني موسى وبني عمير وعرب السماعلة وغيرهم الذين كانوا قد استخفوا بعاملهم الغزواني بن زيدوح فعمل السلطان على قتل العتاة وسجن العصاة ثم ولى وجهه شطر مراكش وكانت هذه الأحداث سنة 1289هـ. ولا غرو أن لسلوكات الحكام أثر في تحريك السكان بأعمال التشغيب مبررين ذلك بتعسفات الحكام وظلمهم.

استقر المولى محمد بن عبد الله في مراكش بقية أيامه إلى أن وفاه الأجل المحتوم في رجب من سنة 1290 وبها دفن.

الحسن الأول

كان المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن عند وفاة أبيه موجودا في قبيلة حاحة فاستدعي لحينه إلى مراكش وعقدت له البيعة من قبل أهل الحل والعقد ولما تم له ذلك عزم على التوجه إليها وتفقد أحوالها حيث مر ببلاد عرب السراغنة وعرب الهضبة الوسطى كورديغة حيث

دخل إلى البروج ثم قصد السهول الغربية كتامسنا وعمل على تمهيد تلك الجهات وتفقد رعيتها وحكامها وبعدها توجه إلى الرباط ومنها إلى مكناس ثم قصد مدينة فاس فوجدها مضطربة النواحي خاصة وأن البربر كأيت عياش وبني أمكيلد كانوا قد بايعوا المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن مولاي سليمان إلا أن تلك البيعة لم تتم لوقوف عرب شراقة وغيرهم ضد تلك البيعة وأدى إلى فشل المولى عبد الكبير فيما عزم عليه وانتهى به الأمر إلى الوقوع في الأسر وعمل أخ السلطان المولى اسماعيل على سجنه والاحتفاظ به.

كان المولى الحسن قد ترك الرباط وتوجه مباشرة إلى بني حسن حيث أقام ببلاد عرب الصفافعة ومنها إلى دار أبي العامري حيث قبيلة أولاد يحي إحدى فروع بني حسن والتي كانت قد أحدثت الكثير من الشغب وهاجموا دار عاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقي وانتهبوها وتوزعوا أثاثها ومحتوياتها فعمل السلطان على مهاجمتهم فاستباحهم الجيش إلى أن أظهروا الخضوع وقبلوا بأداء الواجبات وامتثال الأوامر المخزنية وهذا حدث سبق حلول السلطان بمكناس ويعود إلى سنة 1290هـ.

والواقع أن المولى الحسن أقام بمكناس بقية سنة 1290هـ وإلى أن أوقع ببرابرة بني أمكيلد وبني مطير أنصار مولاي عبد الكبير ولم يدخل فاسا إلا في محرم فاتح سنة 1291هـ.

في سنة 1291هـ قاد أبو عزة الهبري من قبيلة هبرة الهلالية بشرق البلاد بعض قبائل عرب سهل أنكاد في ثورة ضد حكومة المخزن

وسانده في ذلك بعض قبائل البربر كأيت شغروشن وشريفها سعيد بن أحمد الشغروشني فبادر السلطان إلى مواجهته بجيش جمع بين عناصر بربرية وعربية فأوقع بأيت شغروشن وبني سادن وبني وراين وما أقلع عنهم حتى توافدت عليه وفودهم معلنين الولاء وملتزمين الطاعة أما أبو عزة الهبري فقد فر مختفيا بالشعاب ودروبها.

كان لحلول المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بتازا فرصة لعرب الأحلاف في أن يظهروا احتفاءهم بالمقدم السلطاني مظهرين مختلف مظاهر الولاء ولم يشد عن ذلك إلا قبيلة غياثة تلك القبيلة الجبلية المستعربة والتي لم تقدم ولاءها إلا بعد تردد ومن تازا توجه السلطان إلى سهل أنكاد بالشرق حيث قدمت عرب تلك النواحي بيعتها وولاءها وتابعها في ذلك برابرة بني يزناسن والريف الشرقي.

في هذه الفترة وبعد أن عاد السلطان إلى فاس عرفت المنطقة الشرقية أحداثا مهمة تمثلت في الخلاف الذي وقع بين عامل وجدة ولد البشير بن مسعود وعامل تازا عبد الرحمن بن الشليح الزراري في تنافس بعدما كاتب بعض أعراب أنكاد إلى هذا الأخير وكان السلطان قد عرف الكثير من سيرة ولد البشير التي لم تعد ترضيه فقرر إرسال أخيه مولاي علي إلى وجدة وتعين عبد الرحمن بن الشليح عاملا عليها فعمل ولد البشير على تحريك أنصاره من بني يزناسن وبعض عرب أنكاد لصد جيش السلطان وعامله عبد الرحمن بن الشليح وألحق أنصاره الهزيمة بذلك الجيش وفي نفس الوقت كتب إلى السلطان منتصلا مما وقع وأنه كان في حالة دفاع عن النفس لا غير فأسرها السلطان في نفسه.

في سنة 1292هـ عزم المولى الحسن على التوجه إلى مراكش إلا أنه قرر تقديم مسألة الشغب التي أثارها من جديد عرب الرحامنة وزمران وعدم التزامهم بما كانوا يؤدونه من الواجبات وأقام السلطان بزاوية بن سايس وألزم القبيلتين بأداء الديون المترتبة عليهما لخزينة الدولة كما عمل على أخذ الكثير من أبنائهما لأداء الخدمة العسكرية.

أما عرب أولاد أبي السباع بغرب مراكش فإنهم كانوا قبل هذا عن المخزن منحرفين وقد اضطروا عاملهم عبد الله بلعيد إلى ترك بلادهم والالتجاء إلى السلطان بفاس بعد أن خلعوا طاعته وهاجموا من حولهم من القبائل الحوزية فعمل السلطان على البعث بالقائد محمد بن زروال الرحماني ليتولى حكمهم ولم يظهر لهم ما عزم عليه وبوصوله إلى مراكش استدعى فرسان القبائل الحوزية للاستعراض داخل ساحة القصر بمراكش وبحضور فرسان أولاد أبي السباع أغلقت أبواب المشوار المعروف بمشوار أبي الخصيصات وألقى القبض على جملتهم وأمر الجيش بالتوجه إلى القبيلة وإلزامها بدفع 60 ألف ريال كغرامة واستدعى القائد عبد الله بلعيد للعودة إلى منصبه.

في سنة 1293هـ كان السلطان قد توجه إلى تامسنا من أجل تثبيت الأمن في ربوعها وصاحبته فرسان القبائل المختلفة من الشاوية ودكالة والحوز فعمل على إخضاع قبيلة عرب الزيايدة التي كانت قد أظهرت انحرافا وشغبا من أهل تامسنا.

أما في سنة 1294هـ فإن السلطان قرر الذهاب إلى منطقة الشرق لتمهيد شؤونها وإخضاع عرب أنكاد ومسألة ولد البشير وبني يزناسن

ودخول وجدة إلا أنه لم يستمر بها طويلا فسرعان ما عاد إلى فاس التي تلوم بها مدة ثم انتقل إلى مكناس وبعدها زحف إلى قبيلة عرب السهول المجاورين لسلا والرباط وكانوا قد اعتادوا الخروج على ولاتهم فقام بتوجيه حملة تأدبية للحد من شغبهم وعيثهم ومثل هذا فعله مع قبيلة بني عمير من قبائل عرب تادلا حيث بعث بالكثير من مجريمها إلى السجون أما قبيلة بني موسى فقد التحقت بالمرتفعات فارة من وجهه بعدما رأت ما حل بجارتها من بني عمير إلا أن السلطان لم يستمر في محاصرتهم بل استنزلهم على الأمان بعدما التزموا بأداء الواجبات والخدمة في الجيش السلطاني.

كان للنزاع الذي حدث بين القبائل في منطقة سايس حول الأراضي وما نتج عن ذلك من صراع دموي بين البربر والعرب حيث قامت قبيلة بني مطير البربرية بمهاجمة قبيلة عرب ذخيسة وأولاد نصير لانتزاع أراضي كان السلطان قد انتزعها من قبيلة مجاط ومنحها لدخيسة وأولاد نصير وبالرغم من مقاومة دخيسة العنيفة فإن البربر تكاثرت عليهم فأسرع السلطان إلى شن جملة تأديبية ضد المهاجمين وجمع عليهم جموع الغرب والبربر إلى أن أذعنوا فعفى عنهم بعدما أثقالهم بالغرامات وأداء الحقوق ورد المظالم وتعود هذه الأحداث إلى سنة 1296هـ.

ومن أهم قبائل العرب التي شاركت في الحملة المتقدمة شراقة وسفيان وبنو مالك وقبائل الحوز بقيادة العربي بن محمد الشرقي المدعو بابا محمد.

أما في سنة 1298هـ فإن المولى الحسن عمل على الوقوف في وجه المحاولة الاسبانية لإقامة علاقات اقتصادية في غياب الدولة في المناطق السوسية فأسرع إلى التوجه إلى تلك المنطقة وأصطحب معه الجيش من قبائل الشاوية ودكالة وغيرها من القبائل الحوزية العدد الكثير وبوصول السلطان إلى تلك المناطق هرعت القبائل الجنوبية في أيت باعمران وعرب التكنة المعقلية إلى استقبال الركب السلطاني معبرين عن ولائهم فعمل السلطان على تجديد ظهائر الشيوخ والشرفاء وعين مرسى أزاكا ميناء رسميا لنقل السلع استيرادا وتصديرا وتوجه إلى واد نول حيث تلقاه فيها عربانها ومنها إلى اكلميم فبادر عربانها وبربرها إلى استقباله بكل مظاهر الاحفال والتعظيم (انظر الاستقصاء).

إلا أنه لم تدخل سنة 1293هـ حتى خرجت تلك القبائل على ولائها لأنها لم تعتد الخضوع لولاة المخزن بقدر خضوعها لشيوخها ولاعتيادها عادات البداوة فاضطر السلطان إلى الخروج من مراكش بنفسه لتمهيد تلك الجهات والتي ارتعت فيها قبائل عرب بني معقل وأنشأ بعض متنفيذها علاقات تجارية خاصة مع بعض تجار الانجليز الذين اتخذوا من مرسى طرفاية مركزا لتجارتهم افتياتا على دولة المخزن وبوصول السلطان إلى تلك المناطق عادت تلك القبائل إلى إظهار ولائها وطاعتها من جديد وأكد السلطان على مشروعه السابق في شأن مرسى أزاكا على اعتباره المرسى الوحيد والرسمي الخاضع للدولة والمعترف به من قبلها ثم عاد إلى منطقة صحراء أكلميم فوجد قبائل عرب المعقل في انتظاره

من عرب مختار وذوي بلال وبكار وغيرهم كذوي حسان وأولاد جلال يتقدمهم الشيوخ وكبراؤهم مع الشرفاء ترحيبا بمقدمه وإظهار للاحتفاء به في مهرجان لعبت فيه الفرسان على الخيول وتسابقت على مهر الإبل والجمال.

لم تكن زيارة السلطان لهذه المناطق في هذا الظرف إلا لتأكيد سيادة المغرب على جل مناطقه وعلى أنه لا يمكن لأي جهة أن تعقد عقدا مع السكان فرادى كانوا أو جماعات تتعلق بسيادة البلاد السياسية أو الاقتصادية أو غيرها في غياب الدولة وممثلها الشرعي جلالة سلطان البلاد وملكها لأنه الممثل الأعلى للمصالح العليا للوطن.

أما في سنة 1311هـ فإن المولى الحسن كان قد قام بجولة تفقدية عبر المناطق الشرقية للأطلس وشمل الأصقاع الصحراوية الشرقية ومن ضمن الجهات التي زارها أوطاط المشرفة على حوض ملوية الأوسط والأعلى فأظهر عربانها وبربرها من العناية والطاعة والترحيب الشيء الكثير وحل بالمدغرة حيث الأشراف العلويين مقدما لهم مختلف الصلات والهدايا ومنها اتجه نحو عرب الصباح الذين أظهروا من الاحترام والطاعة والترحيب بالركب السلطاني الشيء الكثير وقد رافق المولى الحسن الأول في هذه الرحلة ولداه المولى عبد العزيز والمولى بلغيث ومن ثم قصد تافيلالت حيث زار جده مولاي علي الشريف رأس الأشراف العلويين وواصل الأشراف صلة رحم وإنعام. ومن تافيلالت عادوا إلى مراكش عن طريق ثنية الكلاوي وبعد إقامة بها إلى آخر السنة

عزم على غزو أيت شخمان من البربر إلا أنه في طريقه إلى هدفه وافاه الأجل رحمه الله فنقل جثمانه إلى الرباط حيث دفن بجانب جده مولاي محمد بن عبد الله وذلك في ذي الحجة من سنة 1311هـ.

تم هذا المبحث بحمد الله وحسن عونه
وجميل توفيقه في 8-1-2000
بعد مراجعة وإعادة نظر إذ كان قد
أنجز قبل هذا التاريخ بكثير وقد أشار
إليه السيد محمد بو خلفة في كتابه المعروف
بالطريق إلى معرفة القصر الكبير عند تأليفه
وهذا مجرد تنبيه للقارئ الكريم
وبالله التوفيق

المصــادر:

كتاب العبر	لابن خلدون
المعجب	للمراكشي
القرطاس	لابن زرع
الترجمان المعرب	للزياني
نشر الماثاني	القادري
الاستقصاء	الناصري
تاريخ الرباط	الضعيف
الجيش العرمرم	أكنسوس
الأقنوم منظومة	عبد الرحمن الفاسي
أسفي وما إليه	الكانوني
إيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة	الصديقي
قبيلة زعير	ابن سودة
كتاب الرحمانة	الصديقي
أثر القبائل العربية	مصطفى بوضيف

الجيش المغربي	عبد الحق المريني
قبيلة حاحة	الثمري
كتاب تاريخ الأندلس	ابن الكردوس
مناهل الصفا	عبد العزيز الفشتالي
البيان المغرب	ابن عذاري المراكشي
تاريخ الضعيف	عبد السلام الضعيف الرباطي
المنتقى المقصور	ابن القاضي المكناسي
نظم الجمان	ابن القطاب
أخبار المهدي	البيدق
المن بالإمامة	ابن صاحب الصلاة
تاريخ تطوان	الأستاذ داوود

فهرس

مقدمة 9

تمهيد 11

مدخل 17

المرابطون والعرب 30

الموحدون والقبائل العربية النازلة بالمغرب 32

المرينيون ودور العرب في دولتهم 53

العصر السعدي والهلالية ومن إليهم 71

ظهور الأشراف العلويين وعلاقة العرب الهلالية وغيرهم 85

المصادر 153

الفهرس 155

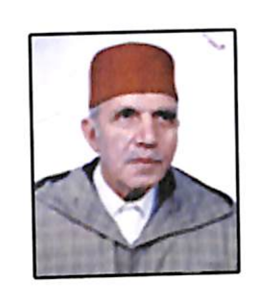
صدر عن الجمعية 156

صدر للجمعية

ر.ت	اسم الكتاب	اسم المؤلف	السنة
01	ديوان: شذور ونفحات	الشاعر: محمد الخباز	1993
02	القصر الكبير: أعلام أدبية تاريخية علمية	الأستاذ محمد بن عبد الرحمان بنخليفة عضو مكتب الجمعية	1994
03	شهادات	مجموعة من الأساتذة	1996
04	معطيات تاريخية " بالإسبانية"	الأستاذ محمد أخريف رئيس الجمعية	1997
05	الشتيت والنثير	الأستاذ محمد بن عبد الرحمان عضو مكتب الجمعية	1998
06	ديوان مساء الماء مع جمعية الامتداد الأدبية بالقصر الكبير	الشاعر: أبو بكر متقي	1999
07	فن تشكيل الحديد (بالفرنسية)	الفنان عبد السلام القوسي عضو مكتب الجمعية	2000
08	صراع في المدينة: مجموعة قصصية	الأستاذ بوسلهام المحمدي الكاتب العام للجمعية	2001

ر.ت	اسم الكتاب	اسم المؤلف	السنة
09	ديوان: إعدام البراءة	الشاعر مصطفى الطريق نائب الكاتب العام للجمعية	2001
10	القصر الكبير: وثائق لم تنشرح: 1	الأستاذ محمد أخريف رئيس الجمعية	2001
11	القصر الكبير: اكتشاف خبايا مطفية الجامع الأعظم بالقصر الكبير	الأستاذ محمد أخريف رئيس الجمعية	2002
12	القصر الكبير: وثائق لم تنشرح: 2	الأستاذ محمد أخريف رئيس الجمعية	2004
13	طير الخلود	المرحوم الشاعر أحمد قدامة	2004
14	لهيب الزمان	الشاعر جعفر الناصري	2005
15	مدينة القصر الكبير تاريخ مجتمع وثائق	الأستاذ:عبد السلام القيسي عضو مكتب الجمعية	2005
16	المغرب ومقدمة ابن خلدون أو ذيل على المقدمة	الأستاذ محمد بن عبد الرحمان بنخليفة عضو مكتب الجمعية	2008
17	أقلام وأعلام من القصر الكبير في العصر الحديث	الأستاذ محمد العربي العسري عضو الجمعية ومحافظ الوثائق	2008

18	أدباء ومفكرو القصر الكبير المعاصرون: (بحث وتراجم)	الأستاذ ج. بوسلهام المحمدي الكاتب العام للجمعية	2008
19	سنابل وأعاصير: ديوان شعر	الشاعر مصطفى الطريبق نائب الكاتب العام للجمعية	2008
20	القصر الكبير: وثائق لم تنشر ج: 3	ذ.محمد أخريف رئيس الجمعية	2008
21	القصر الكبير: وثائق لم تنشر ج: 4	ذ. محمد أخريف رئيس الجمعية	2012
22	القصر الكبير تاريخ مغربي صغير" مترجم"	ترجمة ذ. عبد الرحمان الشاوش	2012
23	أقلام وأعلام من القصر الكبيرج2	ذ. محمد العربي العسري	2012
24	المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى	ذ. محمد بنخليفة	2012
25	لُمع من ذاكرة القصر الكبير	ثلة من أساتذة الجمعية	2012



محمد بن عبد الرحمان بنخليفة

- من مواليد سنة 1937 بالقصر الكبير، من أسرة خليفية قصرية.

- درس المرحلة الابتدائية بالقصر الكبير وتابع دراسته الثانوية بالقاهرة، والتحق بالعراق سنة 1958 لاستكمال دراسته العليا، حيث حصل على الإجازة في التاريخ بكلية الآداب جامعة بغداد 1963.

- عمل بالتعليم الثانوي من سنة 1963 إلى أن أحيل على المعاش في سنة 1997.

- عضو مؤسس لجمعية البحث التاريخي والاجتماعي، وعضو المكتب الإداري الحالي.

صدر له :

* القصر الكبير - أعلام أدبية علمية تاريخية سنة 1994.
* الشتيت والنثير في أخبار القصر الكبير سنة 1998.
* المغرب ومقدمة ابن خلدون أو ذيل على المقدمة 2008.
* المستصفى من أخبار القبائل العربية بالمغرب الأقصى 2012.

مطبعة الأمنية - الرباط